

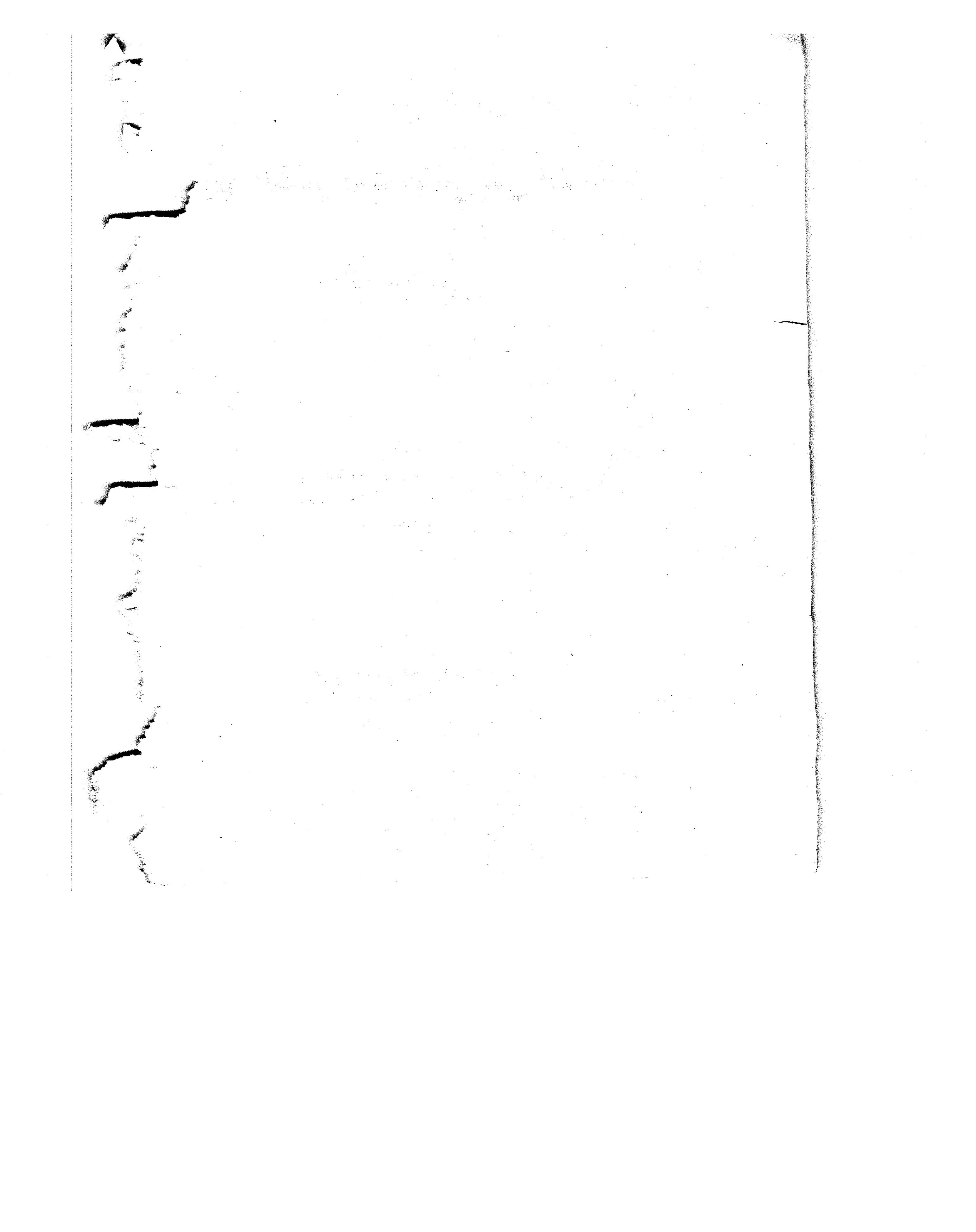
أثر الفكر العلماني فى المجتمع

الإسلامى

تأليف

ا . د / محمد رشاد عبد العزيز محمود
عميد كلية الدراسات الإسلامية
بدسوق

الطبعة الثانية
١٤١٨ / ١٩٩٨



دعاء ورجاء

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ .

« صدق الله العظيم »

تصدير

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

من سورة الصف

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »

من سورة الأنعام

« ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا »

من سورة الفرقان

« قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك ، ومن يبق منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين ، عضوا عليها بالنواجذ »

حديث شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين نبي الرحمة والهدى سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحابته ومن اتبع هداهم إلى يوم الدين .

وبعد . . .

فقد ظهرت العلمانية فى أوربا وفرضت فكرها على حياة الناس وشئون المجتمعات ، وعاشت أوربا حيرى تحت ظلالها القاتمة ، فاضطربت الحياة وكثرت الأمراض النفسية والإجتماعية بها ، حيث سارت فى طريق يستظل بفكر بشرى مادى قطع كل علاقة له بالسماء .

وشعرت أوربا بما جرته عليها العلمانية من شرور ومفاسد ، وتذكرت ما تحمله للإسلام وأمه من حقد وعداء ، فأرادت أن تصدر هذا الفكر كى يحدث فى حياة المسلمين ما أحدثه فى أوربا .

ولقد حقق الغرب ما أراد وتسلل الفكر العلمانى إلى حياة الأمة الإسلامية وتسرب إلى التعليم والقضاء والتشريع ، وأوجد له من بين المسلمين دعاة يبشرون به وينتصرون له ويملأون وسائل الإعلام بالحديث عنه تمجيدا له وحثا على السير تحت لوائه ، وأصبح الفصل بين الدين والسياسة فى المجتمعات الإسلامية أو فى كثير منها ـ حقيقة واقعة .

ولقد خدع كثير من الشباب بهذه الدعايات المضللة . وخاصة وأن القائمين عليها والمنادين بها ذو شهرة عريضة فى عالم الصحافة ووسائل الإعلام .

وأمام حملة التزوير الهائلة والدائرة على قدم وساق فى ساحتنا الثقافية والفكرية كان لابد أن تستنفر الأقلام الإسلامية الصادقة بكافة أساليبها ووسائلها ومستوياتها للجهاد الفكرى والعلمى والإعلامى وتتصدى للبهتان انتصارا لله وللرسول وبيعة مجددة للإسلام العزيز الذى يفرض نفسه بقوة رغم أنف قوى الشر العالمية وما تحمله من باطل والحاد — كحل وحيد لا بديل له أمام الأمة الإسلامية لانهاء حقبة التردى العلمانية إلى الأبد .

وها هو قلمى المتواضع يشارك — بجهد المقل — فى هذا المعترك الفكرى الرهيب بين الإسلام وأعدائه ليفند بعض الأضاليل التى يحمل أعلامهاقوم يزعمون أن الفكر العلمانى يتفق مع الإسلام ، وأن الاسلام نفسه يقر فصل الدين عن الدولة ، وأن الاسلام بمنهجه السماوى عاجز عن قيادة المجتمع وتنظيم مسيرة الحياة وبناء الحضارات وصنع التقدم وأنه يرى فى المادة الشر والدنس .

ويقرر أن الدنيا لاقيمة لها وأن الفوز والغنيمة فى البعد عنها ، وأنه استنفد أغراضه فى مسابقة ، وبالتالى لا يصلح للحياة المعاصرة فى نهاية القرن العشرين والإسلام — كما يزعم المغرضون — يفرض الجمود والتخلف على اتباعه ومن ثمة لابد من تركه — فى رأيهم — إن أردنا تقدما وحضارة .

إن هـذا القلم يضم صوته إلى أصوات هنا وهناك ، أصوات أضناها المسير المر منـذ عشرات العقود فى التيه الذى فرضه غزو

علمانى مخادع تدرع بكل أساليب القهر الفكرى والهيمنة النفسية والتفوق العلمى .

هذه الأصوات لم تخرج من الأعماق عبثا وإنما شخصت مع صيحاتها الداء وطالبت بالعلاج والدواء وحددت البلسم الشافى فى العودة السريعة المخلصة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ونفض الغبار الدنس وخلع ثوب العلمانية والقضاء على ما أحدثته — فى مجتمعاتنا — من شرور ومفاسد والسير تحت راية الاسلام منهجا وحكما وتشريعا وخلقا وسلوكا ويومها سوف يعود المسلمون يتربعون — من جديد — على قمة المجـــد والسؤدد ، ويقدمون لأوربا الحائرة المضطربة طوق النجاة ، فهم وحدهم يملكون المنهج الربانى الذى مكن لهم عندما ساروا على هداه فإذا الدنيا بهم سعيدة وإذا هم فى الدنيا أسعد الناس وخير الناس .

هذا والله أسال أن ينفع بهذا البحث طلاب الحقيقة وأن يجعله فى ميزان حسناتنا ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، وأن يوفقنا لخدمة ديننا والبشرية جمعاء .

هـذا وبالله التوفيق ؟

دكتور
محمد رشاد عبد العزيز

القاهرة : فى جمادى الآخرة سنة ١٤٠٨ هـ
الموافق : فبراير سنة ١٩٨٨ م

كيف وصلت العلمانية إلى بلاد الإسلام

تمهيد :

إننا أمة الإسلام لنا خصائصنا المميزة ولنا كياننا الحضارى ، ولنا تاريخنا العريق الذى يحمل أروع صفحات المجد والعزة والقوة والسيادة والقيادة والريادة .

وإن لنا من الأيادى على البشرية ما لا ينكره إلا جاحد ، ولازالت المبادىء والأصول التى صنعت لنا هذا التاريخ العظيم موجودة بيننا وفى أيدينا ، وقادرة بإذن الله تعالى على أن تضعنا فى نفس المكان الذى كنا فيه أيام الراشدين وسلفنا الصالح .

بل إننا حين نقف فى عالم اليوم مدثرين بهذا الكيان الحضارى ، متفاعلين معه مستمسكين به فإننا سنحظى باحترام العالم كله كما كنا يوم سرنا فى ظلال ديننا وتحت أعلام إسلامنا ورفعنا رايات قرآننا وهدى نبينا ، ويوم إلتزمنا بهذا كله فى واقع حياتنا وفى منهج سلوكنا وصنعنا الحياة الرفيعة والكريمة التى تتفق مع منهج الله القويم الذى سرنا على ضوئه ومع الكرامة الانسانية التى شرفنا الله بها والتى تحققت بأزهى صورة فى فترة من فترات التاريخ عندما قاد أسلافنا العظام البشرية كلها نحو الخير والصلاح والفلاح فأعطوا من أنفسهم المثل الأعلى كطليعة لأمة وصفها بارىء السماء والأرض بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(١) .

لقد عاش العالم الاسلامى ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا - ملتزما

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ .

بمبدأ واحد ومنهج واحد لايحتكم إلا إليه ولا يعول إلا عليه ولا يسير إلا على نوره ، ولا يستفتى فى شئون حياته وما بعد حياته — غيره ، ولا يفكر فى حل مشكلاته إلا على أساسه وبالاستمداد منه ، ذلك المبدأ وهذا النظام هو الاسلام الذى ارتضته هذه الأمة وارتضاه لها رب العالمين جل جلاله وأتم به عليها نعمته (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) .

كانت هذه الأمة توقن أن هذا المبدأ الذى اعتنقته وذلك النظام الذى اتبعته هو سر قوتها وينبوع سعادتها ، وصانع حضارتها وأمجادها ، ورافع ذكرها فى العالمين ، وأن كل نصر أحرزته وكل خير أدركته إنما هو بسر الاستمساك بعراه والاهتداء بهديه ، وأن كل ضرر أصابها وكل ذل ركبها إنما هو بسبب التفريط فى هذا المبدأ والبعد عن تعاليمه ، وترك هذا النظام ورفض السير تحت لوائه(١).

لم يفكر حاكم من الحكام طوال هذه القرون الطويلة — أن يرفض الالتزام بمبدأ الاسلام والاحتكام إلى شرعه ، وإن بلغ فى الاستبداد والطغيان ما بلغ — ولم يخطر ببال شعب من الشعوب المسلمة أن يحكمه يوما ما نظام غير نظام الاسلام ، أو تسود فيه فكرة غير فكرة الاسلام .

كان الاعتزاز بهذا المنهج أو هذا النظام جزءاً من عقيدة كل فرد مسلم بل كان يفخر به ويزهى ويعتقد أنه وحده الحق (فماذا بعد الحق إلا الضلال) ؟

كان يؤمن أن فى هذا النظام دواءا لكل داء ، ولكل معضلة

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

علاجاً ، ولكل عقدة حلا ، وأن علاجه لايدانيه علاج آخر يضعه البشر لأنفسهم أو يستمدونه من أديان منسوخة محرفة انقضى زمنها وانتهت مهمتها .

كان كل مسلم يعتقد أن والحل الاسلامى ، لمشكلات الحياة هو الحل الفذ والحل الناجع والناجح لأنه حل وضعه الله لعباده ورضيه لهم وأنه - جل جلاله - ربهم وخالقهم وهو - سبحانه - بهم رحيم ، كما أنه جل جلاله بهم عليم خبير (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير(١) .

كان هذا الاعتقاد هو السائد فى العالم الاسلامى حتى كان هذا القرن الأخير والذى قبله(٢) حيث جدت أحداث ووقعت أمور ، وتغيرت أوضاع أحدثت خللا فى موازين القوى فى العالم ليس لصالح المسلمين ، وكان من أسبابه أن أهمل المسلمون الأخذ بأسباب القوة المادية والفكرية ، وركنوا إلى الدعة والسكون والجمود ، وقبلوا المفاهيم الوافدة المغلوطة فى حق دينهم ودنياهم ، فأصبح الزهد تواكلا وأصبح القرآن الكريم لا يجاوز حناجرهم ، وانفصلوا حضارياً عن عصور مجدهم ، وعاشوا فى ظلام التخلف والانحطاط والجمود والركود . . . تخلف فى العلم وجمود فى التفكير وركود فى الفقه والتشريع وقصور فى التربية والتوجيه وفساد فى الادارة ونظم الحكم ، وانحطاط فى التجارة والصناعة ، وتأخر فى الانتاج والزراعة ... وفوجىء المسلمون فى القرن الثامن عشر الميلادى بأنهم آخر السلم الحضارى وبأن عصر

---

(١) سورة الملك الآية ١٤ .

(٢) ص ١٥ - ١٧ د . يوسف القرضاوى - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا . الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٧ م مكتبة وهبة .

الرمح قد ولى إلى الأبد وحل مكانه عصر المدفع والقنبلة ، وأخذ المسلمون موقع الدفاع بعد أن كانوا سادة العالم وقادة الأرض ينصرون بالرعب . وأخذوا يبحثون عن حل ينقذهم من هذا التخلف الحضارى وتطلعوا إلى أوربا حيث النهضة الشامخة والتقدم الحضارى الهائل وتمنى الكثير الوصول إلى أوربا والأخذ عنها أسس هذا التقدم وهذه الحضارة ولا سيما وقد أخذت أوربا أسس حضارتنا من قبل لتشيد عليها هذا التقدم العظيم .

الفصل الأول

الزحف الغربي على العالم الإسلامي وقدوم العلمانية في ركابه

عندما قامت الحروب الصليبية لقهر الإسلام والنيل منه واستئصال شأفته والإستيلاء على خيرات بلاده ولم تستطع أن تحقق هذا الحلم الذي طالما راود أعداء الإسلام كثيراً.

ورغم الهوس الديني والتعصب الأعمى والتهور الجنوني الذي صاحب هذه الحروب ورغم تتابع الحملات الأوربية تتابع أمواج البحر الهادر، فإنها في النهاية عجزت عن تحقيق أهدافها، وفشلت فشلا ذريعاً وعادت من حيث جاءت وهي مجللة بالخزي والعار بعد أن أسر أحد قادتها «لويس التاسع» ووضع في سجن المنصورة، ولم ينعم بنسيم الحرية إلا بعد أن دفع فدية مالية عظيمة.

ومن يومها والحقد الأسود - للإسلام وأهله - يملأ قلب أوربا، فأخذ قادتها يفكرون في أمر هذا الدين، وأدرك أحدهم «لويس التاسع» وهو في سجنه، بعد طول تفكير وتدبر - أنه لا يمكن قهر المسلمين والقضاء على الاسلام في عهده - على الأقل.

ولذا فقد وضع مخططاً يسير عليه خلفه من بعد «لتحقيق هدفهم الأسمى «ضرب الاسلام»، فرأى أن تستبدل أوربا الحملات الصليبية الحربية والعسكرية بحملات سلمية تؤدى نفس الغرض، وتعمل على تشكيك المسلمين عن طريق المبشرين والسيطرة على مقدراتهم واقتصادهم.

وأيقن الاوربيون انهم لن يستطيعوا السيطرة على هذه البلاد طالما

كان الاسلام قوياً مسيطراً على نفوس أهله ، وطالما كان منهجاً واقعاً فى سلوكهم وحياتهم وطريقة تفكيرهم .

إنهم يعلمون أو يجب أن يعلموا . . أن الاسلام يختلف عن غيره من الأديان السابقة عليه . . إنه يختلف عن اليهودية فى كونه يخضع معتنقيه جميعاً لله رب العالمين فليس بين المسلمين وبين الله تعالى عقد خاص أو امتياز خاص بأنهم شعب الله المختار ، وهو لا يشارك المسيحية القول بأن « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

فالاسلام عقيدة وشريعة ، دين ودولة ، منهج وثقافة وأسلوب حياة .

هو أمة ودولة لها شريعتها المتكاملة والمتطورة لتدبير شئون هذه الدنيا والتجاوب مع حاجات الانسان لكى يحيا حياة إنسانية كريمة خاضعة لسيادة الخالق وحده جل جلاله .

هو دين ودنيا : دنيا تعمر وتقوم على ما يبسطه لها الدين من إيمان وتقوى وعمل صالح لخير الفرد والجماعة والمجتمع والأمة والإنسانية جمعاء ومن مبادىء وقوانين ، ومن مجتمع متكافل متضامن ، ودولة تستمد نظام حكمها من تعاليم السماء .

وهذه الدنيا التى يطالب الدين بأن تعمر أفضل ما يكون العمران ، وبأن تكون الحياة فيها أكرم ما تكون الحياة ، ليست - مع هذا - إلا مقدمة ومعبراً لحياة أخرى خالدة .

وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا(١)

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧ .

(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)(١) .

إن الإسلام لم يكن مجموعة من الطقوس الدينية وحسب هو الشأن فى غيره من الأديان .

ولكنه حضارة كاملة يحملها الإسلام حيثما ذهب ، حضارة لها أفقها التى لا يصح التعبد بغيرها ، ولها قيمها وقوانينها التى تمتد وتتغلل لتشمل سائر إحتياجات الأفراد والجماعات فى سلوكهم وفى معاملاتهم وفى نشاطهم الفكر والعاطفى على السواء .

ولم يمض على ظهور الإسلام قرن حتى كانت النظم الإسلامية حضارة كاملة ، يحملها الإسلام حيثما إتجه ، ليس فيها ثغرة أو فجوة .

وقد كان هذا هو السبب فى وحدة الحضارة الإسلامية وفى قوة الرابطة التى تجمع أفرادها على هذه الحضارة ، والتى تذيب ما بينهم من فوارق الجنس واللغة والمكان ، بل تذيب الفوارق الناشئة على اختلاف الزمان لتضم هذه الأمة فى وحدة كونية ، ترد آخرها إلى أولها ، وتجمع أولها ، وتجمع حاضرها وماضيها بسبب ثبات القيم الإسلامية وقدرتها على الاستجابة لحاجات الحياة فى تقلباتها وتطوراتها ، وبسبب ثبات لغة هذا الدين ومرونتها التى مكنت المسلم المعاصر أن يقرأ القرآن الكريم ، وأن يقرأ ما كتبه فقهاء المسلمين وأدباؤهم وشعراؤهم

(٢) ص ١١ الرسالة الخالدة ـ عبد الرحمن عزام ـ الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٩ م دار الشروق .

وعلماؤهم وفلاسفتهم على إمتداد تاريخهم الطويل ، دون أن يحس الغربة أو تصده صعوبة فى التعبير ، أو تغير فى الذوق الفنى واللغوى .

فكأن القرآن أنزل اليوم ، وكأنما بعث شعراء الماضى والغابر وأدباؤه وفلاسفته وعلماؤه ، فهم يخاطبون هذا الجيل بما كتبوه وما أنشأوه (١) .

ونشأ عن ذلك كله هــــذه الرابطة الإسلامية القوية التى حار الغربيون فى تعليلها وكلت حيلهم وقصرت وسائلهم — قبلا — عن تفتيتها ، فهى وحدة لا وجود لها فى غير الإسلام من الأديان . . . . دعوة تركيا إلى إنشاء سكة حديد الحجاز — قبل الحرب العالمية الأولى — وتنهال التبرعات المالية من شتى بلاد المسلمين من أندونيسيا إلى أمراكشى .

ويفرض الغربيون على تركيا شروطاً ظالمة بعد الحرب العالمية الأولى فيثور المسلمون فى الهند ثورة عنيفة تفزع الإنجليز (٢) .

ويموت الزعيم الهندى المسلم مولانا محمد على فى لندن أثناء دفاعه عن الإســلام فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فيدفن فى القدس حسب وصيته ، وتتــوالى الأنباء بمحاولات فرنسا السافــرة بين الحربين العالميتين الأولى ، والثانية للقضاء عـلى الاسلام وعلى اللغة

---

(١) ٤٢ — ٤٣ الإسلام والحضارة الغربية د . محمد محمد حسين طبعة أولى سنة ١٩٧٩ ـ المكتب الإسلامى ـ بيروت .

(٢) ص ١٦٢ ج ١ حاضر العالم الإسلامى ـ المسير تيودور موريسون .

العربية ، وتشجيع القومية البربرية فى مراكش فتهتز لذلك بلاد العرب والمسلمين .

وتزداد جرائم إيطاليا الوحشية فى ليبيا ، فينهال المتطوعون من شتى بلاد المسلمين للمشاركة فى الجهاد بأموالهم وأنفسهم ، ويسقط عمر المختار فى هذا الجهاد شهيدا ، فيرثيه كل شعراء العرب ويبكيه كل المسلمين فى أندونيسيا والهند — لذلك كله كانت كراهية الغرب لأمة الإسلام !

عداوة أوربا للإسلام

ومن أجل هذا كله كان عداء أوربا للاسلام ، والخوف من قوة الإسلام ووقوفه حجر عثرة فى سبيل أفكارهم وفلسفاتهم والرعب من وحدة المسلمين وجمع صفوفهم واتحاد كلمتهم ووضوح أهدافهم ونبل وسائلهم وغاياتهم .

ولقد عبر أعداء الإسلام عن هذا كله بقول « غاردنر » :
إن القوة التى تكمن فى الإسلام هى التى تخيف أوربا (١) .

ويقول المستر « بلس » :

إن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى إفريقية ، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا (٢) .

ويقول « لورانس براون » :

إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، أو أمكن أن يصبحوا أيضا نعمة له . أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير .

---

(١) ص ٣٦ التبشير والاستعمار فى البلاد العربية د . مصطفى الخالدى ، د عمر فروخ ، طبعة خامسة سنة ١٩٧٣ المكتبة المصرية — بيروت — صيدا

(٢) ص ١٥ الغارة على العالم الإسلامى تأليف أ . ل شاتليه ، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافى ، مكتبة أسامه بن زيد - بيروت ،

ويقول القس « سيمون » :

إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية(١) .

ويقول « لورانس براون » :

لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى والخطر الأصفر (باليابان وتزعمها على الصين) وبالخطر البلشفى . إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق (لم نجده - لم يتحقق) كما تخيلناه ، إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا .

وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد . ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا . أما الشعوب الصفر فإن هناك دولا ديمقراطية كبيرة تتكفل بمقاومتها .

ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام وفى قدرته على التوسع والاخضاع وفى حيويته . إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى(٢) .

ومن هنا كان إتجاه أوربا القضاء على الإسلام .

ولنسمع الدنيا قاطبة ما جاء فى النشيد الايطالى :

أماه صلى ولا تبكى بل اضحكى وتأملى . . . ألا تعلمين . . . إن إيطاليا تدعونى ؟

---

(١) ص ٣٧ التبشير والاستعمار ، للخالدى وفروخ .
(٢) ص ١٨٤ ج ١ المصدر السابق .

أنا ذاهب إلى طرابلس فرحاً وسروراً لأبذل دمى فى سحق الأمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الاسلامية .

سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن .

ان سألك أحد عن عدم حدادك على فأجيبيه :

إنه مات فى محاربة الاسلام .

الطبل يقرع يا أماه . . ألا تسمعين هرج الحرب ؟

دعينى أعانقك وأذهب(١) .

لقد سكتت الصليبية سنة ١٩٧١م عندما قام الضباط الروس والهنود بسلخ جلود مسلمى باكستان وهم أحياء وقتلوا مئات وآلاف من العلماء والفقهاء والدعاة ويهمنا هنا أن نشير إلى تلك الأنشودة التى رددتها الارساليات المعمدانية عقب تمزق باكستان وولادة بنجلاديش وفيها تقول :

ولدت أمة جديدة اسمها بنغلادش ، سنحت فرصة جديدة لتعليم المسلمين الانجيل ، لم يعد الدين الاسلامى دين الدولة — لقد قتل المسلم أخاه المسلم لنعهد إلى أنفسنا بإقامة الصلوات من أجل التبشير ، ولنجمع المال من أجل فرصة أتيحت للإنجيل(٢) .

ولتسمع الدنيا أيضاً قول وزير الخارجية الفرنسية « سيد بيدو »

---

(١) ص ٢٦٧ المجتمع الإسلامى جـ ٣ د . أحمد شلبى طبعة رابعة سنة ١٩٧٤ النهضة المصرية ، سلسلة موسوعة الحضارة الإسلامية .

(٢) ص ٢٤ — ٢٥ المسلمون فى معركة البقاء . د . عبد الحليم عويس ، دار الاعتصام .

حين قام بعض أعضاء البرلمان الفرنسي يطلبون إنهاء الحرب في الشمال الأفريقي لأنها انهكت فرنسا بغير طائل .

إن هذه حرب الهلال والصليب وينبغي أن ينتصر الصليب وذات يوم يقف « اللورد جلادستون » يصرخ بمجلس العموم البريطاني وقد أمسك بنسخة من القرآن الكريم ويقول ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ولا أن تكون هي نفسها في أمان (١) ونحن مع صاحب مجلة العالم الاسلامي إذ يقول :

العالم النصراني على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو قاس مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

والروح الصليبية كامنه في صدور النصارى كمون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها متغلغلا في أحشائها متمشياً في كل عرق من عروقها . وهي أبداً ناظرة إلى الاسلام .

نظرة العداء والحقد والتعصب الديني الممقوت .

وجميع هذه الشعوب النصرانية مجتمعة متفقة على عداء الاسلام وروح هذا العداء متمثلة في جهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً

---

(١) ص ٩٩ ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة د . عبد الحليم عويس النادي الأدبي سنة ١٩٧٩ الرياض .

لسحق الإسلام سحقاً(١) .

وهكذا جاء الغرب إلى بلاد المسلمين عن طريق الارساليات وتحت راية العلم والتقدم وهو يحمل فى قلبه كل عداوة للإسلام وجاءت معه تجربته فى العلمانية وأراد أن يطبقها فى البيئة الإسلامية ويقوم بفصل الدين عن الدولة وعن شتى مجالات الحياة .

لقد صمم الغرب الصليبى الزاحف أن يهدم ويدمر فاتجه إلى تدمير العقائد والأفكار وهدم القيم والأخلاق وتحطيم الآداب والتقاليد وبذل الغرب جهداً كبيراً فى تربية جيل جديد يكون طوع بنانه ، ويجعل منه قادة المستقبل ، قادة يصطنعهم لنفسه ويصنعهم على عينه ويربيهم فى أحضانه ويغذيهم بثقافاته وأفكاره . قادة سقاهم من كأسه ولقنهم من علمه وأسبغ عليهم من رعايته بريقاً ثقافياً أخاذاً وغرس فيهم الخضوع — عن طواعية وإعجاب — لنظمه وتقاليده والتقديس لمذاهبه وفلسفاته .

إن صناعة هذا الجيل الذى سيقود السفينة فيما بعد ويقبض على زمام التوجيه والتثقيف والتربية والإدارة والسياسة والتشريع كانت أهم ما عنى به الزحف الغربى الخبيث .

وكان النجاح فى صناعته أعظم نصر حققه فى المعركة التى بينه

---

(١) ص ١٠٩ - ١١٠ يوم الاسلام للاستاذ أحمد أمين ، وانظر ص ٦٧ المجتمع الاسلامى ج ٣ . د . أحمد شلبى ، طبعة رابعة سنة ١٩٧٤ ، مكتبة النهضة المصرية .

وبين الشرق الإسلامى منذ عهد هرقل ومعركة اليرموك وما بعدها حتى اليوم .

يقول الأستاذ « برنا ردلويس » رئيس قسم التاريخ بكلية الدراسات الشرقية فى جامعة لندن :

(لقد مرت فترات من الخطر الشديد كان الإسلام مهدداً فيها فى الوقت نفسه من الشرق والغرب ، غير أن الإسلام تغلب عليها واجتازها دون أن يتأثر) .

جاءه الأتراك غزاة فاتحين فتحـــولوا إلى مسلمين مؤمنين ، وتمثلهم المجتمع الإسلامى الكبير فانصهروا فى بوتقته ، وكانوا هم أنفسهم من أقوى أعمدة الاسلام التى أقامت مجتمعاً كان يغنى إجتماعياً وسياسياً .

وبهذه القوة والحيوية تمكن الاسلام من الصمود : بل من دحر غزوات أعدائه الصليبية الذين جاءوه من الغرب .

ثم واجه الاسلام بعد ذلك لطمتين أشد وأقسى وأحدث وأخطر . فلقد سحق الشرق الأوسط الاسلامى مرتين ، واحتله الغزاة الأجانب الذين سيطروا عليه بقوة السلاح .

وعلى الرغم من أنهم لم يستطيعوا تحطيم حضارته الاسلامية القديمة الأصول ، فإنهم (لغموا) ثقة الذين صانوا هذه الحضارة بأنفسهم ، وهكذا حولوا وجهتهم نحو إتجاهات جديدة .

أولى هاتين اللطمتين كانت الغزو المغولى فى أواسط آسيا التى حطمت

الخلافة القائمة وأخضعت الدرة الأولى منذ عهد النبوة قلب العالم الاسلامى لحكم غير إسلامى .

أما اللطمة الثانية فهى تأثير الغرب الحديث(١) .

والذى يبدو أن اللطمة الثانية كانت أقسى وأشد خطراً من الأولى .

فقد استطاع الاسلام بقوته الذاتية أن يؤثر فى التتار المنتصرين ويجذبهم إلى ساحته ، فتقع المعجزة الاسلامية ويدخل التتار فى دين الله أفواجاً ويسجل التاريخ - مرة أخرى - اعتناق الغالبين دين المغلوبين .

أما اللطمة الثانية فما زال العالم الاسلامى كله يقاسى آلامها ويعانى آثارها الهدامة إلى اليوم :

فقد أخذ الغرب ينفث سمومه المدمرة بين المسلمين مركزاً على هذا التخلف الذى ران على حياتهم معلناً أن دينهم وتحكيم قرآنهم هو سر هذا التخلف والجمود .

وإذا أرادوا النهضة والتقدم والحضارة والمدنية والوصول إلى ما وصل الغرب إليه فعليهم أن ينحوا دينهم جانباً وأن يأخذوا حضارة الغرب وثقافة الغرب وفكر الغرب وعلم الغرب وعلمانية الغرب وتقاليد الغرب وعادات الغرب .

---

(١) ص ٣٢ - ٣٣ الغرب والشرق الأوسط تعريب ، د . نبيل صبحى وانظر ص ١٨ - ١٩ د . يوسف القرضاوى ، الحلول المستوردة .

وحمل تلامذتهم وصنائعهم وعملاؤهم هذه الدعوة وألبسوها ثوب الحق والنصح الراشد والاخلاص الأمين ، وأخذوا يملأون بها سمع الزمن وينادون بفصل الدين عن الدولة وعزله فى ساحات دور العبادة فقط ليصبح الدين بين المسلمين ـ كما فى الغرب ـ علاقة فقط بين المرء وربه وتلاقت الجهود ليصبح هذا فى الحياة واقعاً مراً .

ولقد كان فى مقدمة من نادى بالعلمانية فى المجتمعات الإسلامية وحمل لواءها وكرث جهده لها بعض النصارى ومن سقط فى دعوتهم من المسلمين أيضاً .

وقد أخذ هؤلاء النصارى يشجعون الإتجاهات العلمانية المتحررة ويدعون أولا إلى ما يسمى بالفكر الحر ، الفكر الذى لا يحدد موقف الدين من الموضوعات العلمية والحضارية التى يتكلم فيها ولا يبالى به وهذه هى العلمانية التى تقوم عليها حضارة الغرب فى صميمها .

ولقد اعترف « كرومر » فى كتابه « مصر الحديثة » بأنهم من الطوائف التى أعانت السياسة الإستعمارية فى تحقيق أهدافها ، كما أعانوا الخديوى إسماعيل من قبل حين استخدمهم فى تنفيذ سياسته التى تقوم على إدخال الحضارة الغربية فى مصر . (١) ولذلك كانوا أسبق الناس إلى تأسيس الصحف .

بعض هذه الصحف كان يومياً يحمل أنباء وأحداث العالم والأفكار

---

(١) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر د . محمد محمد حسين ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ طبعة ثانية .

والمذاهب السياسية مثل صحيفة المقطم وغيرها وبعضها الآخر كان أدبياً علمياً ينشر أخبار التطورات الحضارية والثقافية الغربية فى العلوم والمخترعات وفى المذاهب الإجتماعية وفى الأدب والفلسفة والفن وتمثله صحيفة « المقتطف » التى انتقلت إلى مصر سنة ١٨٧٤ م - وكانت قد ظهرت قبل ذلك بثمانية أعوام فى بيروت .

وصحيفة الهلال التى أنشئت فى مصر سنة ١٨٩٢ م وهذا النوع الأخير الذى تمثله هاتان الصحيفتان هو الذى تزعم الدعوة إلى العلمانية والتحررية فى الفكر العربى الحديث .

وأهمية هذه الصحف لا ترجع إلى ما كانت تذيعه من آراء فحسب ولكن أهميتها الكبرى ترجع إلى أنها كانت مركزاً لتنشئة الجيل التالى من الصحفيين على هذه المبادىء العلمانية وهو الجيل الذى ربى بدوره جيلا آخر ، جاءت وتجىء من بعده أجيال على شاكلته فلم تمض فترة وجيزة حتى كانت الصحافة كلها فى أيدى العلمانيين كما لاحظ ذلك « جب » .

ولقد كان المسيحيون أسبق أبناء العرب إتصالا بالثقافة الغربية وذلك لانتشار مدارس البعثات التبشيرية ، فأخذوا يقرأون كتبا تصور الثقافة الفرنسية الجديدة التى تمثل علمانية الثورة الفرنسية .

ولقد أثرت هذه الثقافة فى نفوس كثير منهم حتى سمعنا فى القرن التاسع عشر عن رجل مثل « ميخائيل مشاقه » يحدثنا فى كتابه « الجواب على اقتراح الأحباب » أن الشكوك بدأت تساوره فى عقائده الدينية وأنه وجد فى مجتمعه كثيراً من الناس الذين يفكرون على شاكلته .

ونشط هؤلاء الناس وسعوا إلى جعل لبنان على وجه الخصوص دولة علمانية على الطراز الأوربى ، وساعدهم على ذلك انتشار الثقافات الغربية العلمانية وتدخل الدول الغربية من ناحية وسوء تطبيق المبادىء الإسلامية فى أواخر أيام الدولة العثمانية من ناحية أخرى(١).

(١) ص ٥٥ وما بعدها من الاسلام والحضارات الغربية د . محمد محمد حسين

أفكار الغرب الهدامة

وأخذ الغرب يعمل بكل طاقته على أن يبث فكره الهدام ويقوم فلسفته المادية المنحرفة فى ثوب براق لأبناء المسلمين الذين يذهبون إليه فى بعثات لتحصيل العلوم الحديثة ، ويعمل - بكل جهد - على أن يشككهم فى قيمهم وفى عقائدهم وتراثهم ، ويحاول إغراءهم بالمال والنساء كى يقضى على البقية الباقية لديهم من خلق أو دين .

ولا غرو بعد ذلك إذا رأينا هؤلاء المبعوثين إلى الغرب يذهبون إليه مسلمين شرقيين ويعودون - إلا من عصم الله - متغربين علمانيين لا دينيين لم يغيروا أسماءهم ولا دينهم الرسمى ، ولكنهم غيروا أفكارهم وقيمهم ونظرتهم إلى الدين وإلى الحياة وإلى الناس وإلى الماضى وإلى الحاضر وإلى النظم والشرائع وإلى الآداب والتقاليد .

وبدأ ذلك واضحا فى سلوكهم وأخلاقهم وعلاقتهم وفيما يكتبون وينتجون فى ميدان الفكر والثقافة والتوجيه (١) .

فقد تشربوا من الغرب كل مايشوه حقائق الإسلام وتاريخ الإسلام وحضارة الإسلام .

ولنأخذ مثلا فى هذا المجال كى ندرك كيف يقوم الغرب بتشويه صورة الإسلام أمام كل الناس .

فقد جاء فى كتاب : (البحث عن الدين الحقيقى) للمستشرق

---

(١) ص ٢٠ من الحلول المستوردة د . يوسف القرضاوى .

كولى(١) عن الإسلام ما يلى (٢) :

الإسلام فى القرن السابع الميلادى : برز فى الشرق عدو جديد ذلك هو الاسلام الذى أسس على القوة وقام على أشـــد أنواع التعصب .

لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب ووعد الذين يهلكون فى القتال بالاستمتاع الدائم باللذات .

وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وأفريقية وأسبانية فريسة له ، حتى إن إيطالية هددها بالخطر ، وتناول الإجتياح نصف فرنسة ، لقد أصيبت المدنية .

ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين) تناول فى الأكثر كلاب النصارى . . .

ولكن انظر ها هى النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سد فى وجه سير الاسلام المنتصر عند بواتيه (٧٥٢ م) .

ثم تعمل الحروب الصليبية فى مدى قرنين تقريبا : (١٠٩٩ — ١٢٥٤ م) . فى سبيل الدين فتـــدجج أوربه بالسلاح وتنجى النصرانية .

---

(١) صدر هذا الكتاب عن إتحاد مؤسسات التعليم المسيحى فى باريس طبعه عام ١٩٢٨ وهو عبارة عن محاضرات دينية وقد نال هذا الكتاب رضا البابا « ليون الثالث عشر » .

(٢) ص ٢٢ من الكتاب المذكور وانظر ص ٧٢ - ٧٣ من التبشير والاستعمار للخالدى وفروخ فسوف تجد الكثير فى هذا المجال .

وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب ، وانتصر الإنجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق السهلة(١) .

وهناك كتاب آخر — وما أكثر الكتب فى هذا المجال — اسمه «تاريخ فرنسة» تأليف «غيومان وف لوستير» جاء فيه :

إن محمدا مؤسس دين المسلمين . قد أمر أتباعه أن يخضعوا العالم ، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو . ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى .

إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس : (أسلموا أو تموتوا) بينما أتباع المسيح : ربحــوا النفوس ببرهم واحسانهم .

ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا ؟ إذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين(٢) .

بمثل هذا الحقد الأسود تقدم الكتب لأبنائنا هنا وهناك ، وبمثل هذا الحقد الدفين تشوه الحقائق وتقلب رأسا على عقب .

ومع هذا الحقد الواضح تضيع الأمانة العلمية ، ويذهب الحق

---

(١) لا تزال أمثال هذه الكتب تدرس فى مدارس الارساليات الأجنبية . وفى كل حين تضطر وزارة المعارف اللبنانية إلى منع كتاب أو أكثر انظر ص ٧٣ من المصدر السابق .

(٢) ص ٨٠ ، ٨١ من الكتاب المذكور (تاريخ فرنسه) نقلا عن ص ٧٥ من التبشير والاستعمار .

ليحل مكانه الباطل وتتلاشى الحقائق لتوضع مكانها الأباطيل ، وذلك لإبعاد أبنائنا عن ديننا وعقيدتنا وقيمنا ولتحقيق هدفهم فى علمنة حياتنا وهذا ما يهدف إليه أعداء الاسلام .

ولقد سيطرت النظريات الغربية الثلاث : الفرنسية والانجليزية والأمريكية على فكر شبابنا ، وفرضت أسلوبها وتصورها للحياة والانسان والكون ، وتجاهلت تماما أى اعتبار للعربى أو للمسلم ، وإنما حاولت أن تشكل هذا الدارس وكأنه غريب تماما عن بيئته وثقافته ، وكانت ظاهرة الإنفصال عن الدين والأخلاق هى أبرز معالم المناهج الدراسية .

وإذا كان الغرب قد أقام نظريته فى التربية والتعليم على أساس إبعاد الدين عن التربية وفق تجربته مع المسيحية الغربية . فإن الأمر كان مختلفا مع الاسلام فهو ليس دينا فحسب ، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع أيضا .

وهو الدين الذى لم يقف موقف الصدام مع معطيات العلم أو حركة التقدم . فلظروف خاصة بالغرب قد انفصلت مناهج التربية والتعليم عن الدين فى أوربا .

ولكن هذه الظروف لم تواجهها المجتمعات العربية الاسلامية . ولم تكن مناهج التربية والتعليم الاسلامية قادرة على أن تنفصل عن الاسلام الذى هو بمثابة الأساس المكين لكل مقومات المجتمع والعلم(١) .

---

(١) التربية وبناء الأجيال فى ضوء الاسلام ، أنور الجندى ، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ دار الكتاب اللبنانى ، بيروت .

ولقد أثر هذا الغزو الفكرى الفلسفى والثقافى على حياتنا العلمية فريما معظم كتبنا المدرسية فى كثير من البلاد الاسلامية مترجمة بالنص أو بالمعنى عن المراجع والثقافات الغربية .

فتاريخنا ينقله المؤلفون عن مراجع المؤرخين الأجانب ، وكتب العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وتشريح لجسم الانسان مترجمة عن الأبحاث التى قام بها علماء الغرب ، وكذلك سائر العلوم الانسانية من تربية وفلسفة وعلم نفس وعلم إجتماع وباقى العلوم الأخرى من جيولوجيا وجغرافيا إلخ إلخ .

ومن المعروف أن العلوم الغربية تنطلق من تصور خاطىء للوجود كله يغاير الأسس الفكرية الاسلامية ، فالمنطلقات العقائدية المشتركة بين كل فروع المعرفة والثقافة الغربية هى : أن الوجود كله فى زعمهم منحصر فى الطبيعة والانسان ، والانسان جزء من الطبيعة ونوع من أنواعها .

والطبيعة وجدت هكذا بنفسها وكذلك سننها أو قوانينها — حسب رأيهم — مقدرة بنفسها من غير مقدر لها ، والعقل عندهم وحده طريق معرفة الحقائق وليس ثمة طريق آخر ، وليست المثل الأخلاقية والقيم والمفاهيم الحقوقية إلا وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية نشأت وتطورت فهى ليست ثابتة ، والانسان نفسه إنما هو حيوان إجتماعى مفكر فحسب ، وليست النفس الانسانية ، إلا مجموعة من الغرائز ، وليس فى هذه الفلسفة الغربية أو التصور الوجودى للكون — كما نرى — مكان للإله وصلته بالانسان وبالكون ونظامه السببى ولا بالوحى والنبوات ولا للجزاء والحياة الآخرى الخالدة ولا لسائر

المغيبات(١) .

يقول جورج سول فى كتابه المذاهب الاقتصادية الكبرى(٢) .

وصار لزاما على الذين نبذوا الإيمان كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ووجدوه فى الطبيعة .

أما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان - وإن لم يكن فى الواقع كما هو أغلبهم - فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة .

وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شىء له وجود فحسب . وإنما هو شىء ينبغى أن يطاع ، وصارت مخالفتها دليلا عن نقص التقوى والأخلاق .

ولقد جاء فى كتاب : « المادية التاريخية »(٣) .

إن العلم إذ يكشف عن الصلات الطبيعية بين ظواهر الطبيعة يطرد فى تطور الإله من الطبيعة ويرفض المثالية ويؤيد صحة النظرة المادية إلى العالم . والعلم يتفق مع المادية فى بحثه عن الحقيقة فى الحياة ذاتها ، وفى الطبيعة ويفسر ظواهر الطبيعة والمجتمع معتمدا على القوانين الموضوعية .

---

(١) الاستاذ محمد المبارك عن مجلة البعث الإسلامى مجلد ٢١ - عدد ١٠ ص ٣٣ تصدر بالهند ندوة العلماء .

(٢) ترجمة الدكتور راشد البداوى ص ٥٠ - ٥١ من الترجمة العربية .

(٣) تأليف ف . كيلى م كوفا لزون ، ترجمة أحمد داود ومراجعة د . بدر الدين السباعى ، طبع دار الجماهير بدمشق ١٩٧٠ م ص ٥٠٠ .

وهذا ما يدل على أن العلم الحقيقي ذو طابع مادي . إن العلم مادي بطبيعته وبجوهره ، والمثالية غريبة عنه وعدوة له .

وعندما اكتشف « نيوتن » قانون السببية وهو القانون الذي يفسر ظواهر الطبيعة ويردها إلى أسبابها الظاهرة .

وقد اتخذت أوربا هذا القانون كذريعة لنفي الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة أي نفي الأسباب الغيبية .

يقول « راندال » :

إنه لأقرب إلى الطبيعي والمعقول أن تشتق من صور المادة كل شيء موجود ، لأن كل حاسة من حواسنا تبرهن على وجودها وتختبر كل لحظة نتائجها بأنفسنا ونراها فاعلة متحركة ، تنقل الحركة وتولد القوة دون انقطاع من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة ولكائن روحي لا يستطيع أن يخرج من طبيعته ما ليس هو بذاته . كائن يعجز بحكم الجوهر المنسوب إليه أن يفعل أي شيء ، أو أن يحرك أي شيء (١) .

ويقول الدكتور البهي :

ومعنى تقدير أوربا للطبيعة على هذا النحو أن الطبيعة في نظرها هي التي تنقش الحقيقة في ذهن الإنسان ، والانسان ـ لهذا ـ لا يملي عليه

(١) ص ٤٣٩ ج ١ : تكوين العقل الحديث .

من خارج الطبيعه ، أى لا يملى عليه مما وراءها كما لا يملى عليه من ذاته الخاصة ، إذ ما يأتى من وراء الطبيعة خداع للحقيقة وليس حقيقة ، وكذا ما يصوره العقل من نفسه ، وهم وتخيل للحقيقة وليس حقيقة أيضا ، وبناء على ذلك يكون الدين وهو وحى : (أى ما بعد الطبيعة) خداع (١) .

وهكذا كانت تصورات أوربا كلها مأخوذة من إيمانها المطلق بالطبيعة وهذا مالا يعترف به دين الاسلام الحنيف .

بل إن البحث فى الطبيعة وما بها من ظواهر ومظاهر لا يحث الاسلام عليه إلا ليؤمن الانسان بخالق الطبيعة وكل شىء عليها ويعلم قدرته ورحمته وعلمه المحيط بكل شىء .

إن الغزو الفكرى واكتساح نظام التعليم الغربى للبلاد الاسلامية أدى إلى عملية تهديم لمبادىء الاسلام وجميع المثل العليا والقيم التى بها يمكن أن يتقدم الإنسان ويسمو فى حضارته فى تقــدم حقيق مستمر .

لقد جرف التيار الفكرى الغربى الشباب الإسلامى فى البلاد العربية والعجمية (الذين كانوا زينة أمتهم وزهرة بلادهم) وغير عقليتهم إلى حد أن عقولهم أصبحت لا تستطيع أن تستسيغ الاسلام الصحيح

---

(١) ص ٢٩٨ - ٢٩٩ د . محمد البهى الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

وأصبحوا لا يندمجون فى مجتمعاتهم الاسلامية و يصبحون جزءاً منه وهذا مايشير إليه « إقبال » بقوله :

« إن سحر الإفرنج أو فنه أذاب الصخور وأسالها ماء » .

إن الإلحاح على كون الدين قضية شخصية لا علاقة لها بالدولة والحكم ، والمعاملة مع الاسلام كمعاملة الكنائس المسيحية ، ونظرية فصل الدين عن الدولة والاعتقاد بأن الدين عائق فى طريق النهضة والإكتشافات والإختراعات ، وإقامة علماء الاسلام فى صف ممثلى الكنيسة المسيحية ، الذين كانوا يملكون السلطة المطلقة فى العصور المتوسطة .

وإعطاء المرأة حق الإسهام فى جميع أمور الحياة ، وخروجها مع الرجل متكاتفة متساوية ، وجعل الحجاب - فى أى شكل كان - تذكارا لنظام الحريم القديم فى الشرق ، وعلامة استبداد الرجل بالمرأة ، والقضاء عليه كخطوة أولى نحو الاصلاح والتقدم ، والاعتقاد بأن قانون الوراثة والنكاح والطلاق اجهاد فقهاء المسلمين فى العصور الوسطى ونتيجة طبيعية للمجتمع البدائى المحدود الذى وجد فى القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وإدخال التغيير والاصلاحات فى المجتمع وصوغه فى قالب المجتمع الغربى بتطبيق المبادىء الغربية ومعاييرها عليه ، فريضة الساعة وواجب الوقت وحتمية التقدم وصرف النظر عن الربا والخمر والميسر .

وعن العلاقات الجنسية المنطلقة والإيمان بالقومية ، والاندفاع نحو إحياء الحضارة القديمة واللغات العتيقة والإيمان بأهمية الخط اللاتينى وفوائده .

كل هذه النزعات والاتجاهات الهدامة، وما أشبهها التي تحتل محل الحقائق الثابتة لدى الجيل المثقف، وتعد من أمارات التنور والنهضة والتقدم.

كل ذلك نتيجة نظام التعليم الغربي وبيئته الفكرية وجوه العلمي والعقلي وتراثه التاريخي ليس غير(١).

وفي ظل استراتيجية مرنة دائما، قابلة للتلون والتريث خاضعة لمناهج علمية ونفسية يسير التبشير والغزو الفكري مع الأمة العربية والإسلامية، خطوة خطوة يتعهد خطاها بالإفساد، وطريقها بالمعوقات، وفكرها بالتمويه وهو دائما معها.

فلئن خرجت جيوش استعماره، فإنه يترك - نيابة عنه - جيشا من لون آخر يعمل ويتحرك(٢).

إن الغرب يحاول الآن التمهيد لشيء آخر واضح... إنه التبعية الكاملة لمناهج وتصورات أوربا، ومسخ مقومات الشعب المسلم الحضارية والقضاء على فكرة إحياء الحضارة الاسلامية.

لكن الله غالب على أمره ولو كره الكافرون...

---

(١) ص ١٧٢ — ١٧٣ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية الندوي.

(٢) ١١١ — ١١٢ ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة د. عبد الحليم عويس.

الثمار المرة

لقد خدع كثير من أبناء أمتنا بثقافة الغرب وفلسفة الغرب وحضارته ، وتشبعوا بروحه ، فإذا بهم يتنفسون برئة الغرب ويفكرون بعقله ويرددون - في بلدهم - كلمات أساتذهم المستشرقين وينشرون أفكارهم ويشرحون نظرياتهم في إيمان عميق وحماسة زائدة وكأنهم صدى لهؤلاء المستشرقين .

بل ربما كانوا أكثر حماسة منهم لآرائهم فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق في الغرب بحثا ولا يعرف له رأيا أو نظرية إلا ونجد - في المسلمين - من يتبنى هذه النظرية ويدافع عن هذا الرأي ويدعو - بني جنسه - الأخذ به في بلاغه ولباقة .

وذلك مثل بشرية القرآن الكريم وفصل الدين عن السياسة وأن الاسلام دين لا دولة والدعوة إلى العلمانية ، والشك في مصادر العربية الأولى ، والشك في قيمة الحديث العلمية وإنكار مكانته وحجته ومكانة السنة في الاسلام والدعوة إلى القومية العربية والاشتراكية المادية والشيوعية الماركسية والفلسفات المعاصرة من الماسونية والوجودية وغير ذلك كثير وكثير .

إننا نرى ظلال الفكر الغربي وأرقة ممدودة على العقول الاسلامية والأقلام العربية مسيطرة عليها كسيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة منعكسة فيها انعكاس الشمس في المرآة الوضيئة .

ولقد شهد بهذا كله مستشرق عرف الشرق الإسلامي وعرف تياراته

الفكرية معرفة دقيقة إنه هـ . ا . ر . جب حيث يقول فى كتابه : « إلى أين يتجه الاسلام » ! ؟

وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربى ، ولمدى تغلغل الثقافة الغربية فى الإسلام ، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية . . .

علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التى ابتكرت بدافع من التأثير بالأساليب الغربية بعد أن تهضم وتصبح جزءا حقيقيا من كيان الدولة الإسلامية فتتخذ شكلا يلائم ظروفها (١) .

وكان أثر ذلك كله الثمار المرة الآتية :

أولا . . علمانية كمال أتاتورك :

إن أول من رفع لواء العلمانية - فى بلاد الاسلام - كنظرية ثم عمل على تطبيقها كنظام دولة هو « كمال أتاتورك » الذى حول تركيا إلى دولة علمانية .

فألغى الخلافة الاسلامية وحذف من الدستور عبارة « الإسلام دين الدولة » ، وأحدث الفصل بين الدين والسياسة ، وقرر أن الدين قضية شخصية ، فلكل فرد أن يختار له دينا ويدين به من غير أن يكون له

---

(١) نقلا عن كتاب الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ، وانظر ص ١١١ – ١٢ من الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية للندوى .

دخل فى السياسة والإدارة وألغى المحاكم الشرعية وقانون الشريعة الاسلامية .

وقرر العمل بالقانون المدنى السويسرى والقانون الجنائى الإيطالى والقانون التجارى الألمانى ، وأدخل الأحوال الشخصية فى القانون الأوربى ، ومنع التعليم الدينى وعطل مراكزه ومنع الحجاب . وقرر السفور والتعليم المختلط ، وألغى الحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية ، ومنع الآذان بالعربية وجعله بالتركية .

وبعبارة موجزة قد حطم الأساس الدينى كله ، وغير وجهة نظر الشعب التركى والحكومة التركية (١) وسن قانونا حرم بموجبه لبس الطربوش وبدله بالقبعة (٢) .

وحظر على رجال الدين إرتداء لباسهم القديم ، وساوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق السياسية والإجتماعية والميراث ، وحمل الشعب على تغيير أسمائهم العربية واستبدالها بالقاب تركية الأصل ، وبدأ بنفسه حيث فسخ مصطفى كمال وتسمى : (أتاتورك)(٣) . وقدم مشروعا(٤) تحولت به الدولة التركية إلى دولة علمانية .

وقال فى تبرير ذلك : إن الامبراطورية العثمانية قامت على أسس الاسلام .

---

(١) انظر ص ٦٠ من المصدر السابق .

(٢) ص ٣١٤ الرجل الصنم ، تأليف ضابط تركى سابق ، ترجمة عبد الله عبد الرحمن مؤسسة الرسالة الطبعة الاولى سنة ١٩٧٧ م .

(٣) أى أبا الترك ، انظر ص وما بعدها من العرب والترك : محمد بيهم .

(٤) فى ٣ مارس سنة ٩١٢٤ م .

إن الاسلام بطبيعته ووضعه عربى وتصوراته عربية وهو ينظم الحياة – من ولادة الإنسان إلى وفاته – ويصوغها صياغة خاصة ويخنق الطموح فى نفوس أتباعه، ويقيد فيهم روح المغامرة والإقتحام، والدولة لا تزال فى خطر مادام الاسلام دينها الرسمى(١).

وهكذا نجح أتاتورك فى تحطيم حصون الاسلام فى تركيا وخلع رداءه وقضى على نظامه، وأقصى العنصر الاسلامى والعربى من الحياة التركية.

علمانية أتاتورك فى ميزان النقد:

لقد نجح كمال أتاتورك نجاحا كبيرا فى إقصاء العنصر الإسلامى والعربى – كما سبق – من الحياة التركية، وأجبر الشعب على أن يعيش نمط الحياة الغربية. وفرض التغريب الكامل بالإرهاب والقوة والتعذيب

فهل نجحت الدولة التركية العلمانية فى خلق مجتمع قوى متماسك؟ وفى خلق دولة شامخة يرهبها العدو ويخطب ودها الصديق؟.

كلا وألف كلا..

فقد خسرت تركيا الحياة الاسلامية ولم تزل عالة على الغرب، فلا هى احتفظت بتراثها الروحى وأصالته. ولا أحرزت تقدما ماديا فى عالم المخترعات، والتقدم التكنولوجى، أو الفلسفة الهادفة البناءة.

---

(٣) ص ٦٠ – ٦١ الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية، للندوى.

يقول صاحب كتاب «من هنا نعلم»(٢) .

بدأت فى تركيا حركة رجعية بالية لاحياء الجنسية الطورانية انتهت بمحو الخلافة الاسلامية ، وفصل الدين عن الدولة . فماذا أفاد الأتراك من ذلك ؟

لقد كانوا باسم الإسلام وفى ظله يخيفون جاراتهم روسيا وظلوا عدة قرون يديرون رحى الحرب فى أرض روسيا نفسها !!

أما اليوم فتركيا دويلة تتسول سلاحها من أمريكا وتعيش على هامش الديمقراطية المفككة ، وتقنع مرغوبة فى أقل من ١٠ ٪ من حدودها الأولى ، فماذا أفادها كفرها .

ويقول الدكتور محمد البهى عن الحركة الكمالية فى تركيا فكريا :

إن أى مفكر يقدر قيمة الفكر ، لايصف هذه الحركة التركية إلا بأنها تقليد فى غير وعى للغربيين وأنا أقصد «فى غير وعى» لأن الباعث عليها الرغبة فى أن تكون تركية جزءا من أوربا لامن آسيا ، وأن يكون للأتراك طابع الغربيين ـ لا الشرقيين ـ فيما هو ممدوح أو مذموم ، كما طلب لمصر يوما ما صاحب كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» . فهى حركة اندفاعية لاحركة متئدة تتخير وتقدر فى تخيرها الاحتفاظ بشخصية الأمة أو الجماعة .

اليابان جددت حقا ، لأن حركتها التجديدية قامت على التخير دون الإندفاع ،

---

(٢) الشيخ محمد الغزالى ص ٧١ ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة الطبعة السادسه بدون تاريخ .

اليابان ظلت شرقية ، ومع ذلك تفوقت على الغرب فى مجال الصناعة وقيل ذلك فى المجتمع وتماسكه كمجتمع له شخصية بارزة .

أما تركيا فليس لحركتها طابع معروف حتى اليوم ، فلا هى بالشرقية ولا هى بالغربية ، يجعلها الغرب غربية فى اللحظة التى يريد أن يحرضها على الامعان فى البعد عن الإسلام والجماعات الاسلامية ، وفى مقدمةهذه الجماعات الشعوب العربية ، لأنه نزل بلغتها القرآن . . ويجعلها شرقية يوم يتحدث عن حضارتها المعاصرة بأنها حضارة مستعارة من الغرب ليس لهافيه إلا التقليد الأعمى! .

من السهل على الفرد — وكذا على الجماعة — أن يهدم ويلغى ، ولكن ليس من السهل أن يبنى ، وأشد عسراً أن يكون أصيلا فى البناء .

إن تركيا الحديثة مظهر تجديدها إلغاء الدين وفقدان شخصيتها وتبعيتها تبعية مطلقة فى السياسة والتوجيه والاقتصاد للغرب الصليبى (١) .

إن حركة أتاتورك حركة فاشلة خاسرة ، وهى فى الوقت ذاته حركة ضالة منحرفة . سواء قسناها بمقياس الدين الإسلامى أم بمقياس الوطنية أم بمقياس الديمقراطية والحرية أم بمقياس الفكرة والحضارة إنها بمقياس الدين حركة ردة صريحة تنكرت لعقيدة الأمة وشريعتها التى آمنت بها وتغلغلت فى حياتها وزادت عنها قروناً . لقد استخفت بحرمات الإسلام وأنكرت أحكامه القطعية الضرورية فليس لها وصف

---

(١) ص ٤٣٦ الفكر الإسلامى الحديث طبعة ثامنة عام ١٩٧٥ م د . محمد البهى مكتبة وهبة .

إلا الردة(١) (ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)(٢) .

وها هو محمد إقبال يسجل فى « جاويد نامة » انتقاد الأمير سعيد حليم باشا للثورة التى قام بها أتاتورك فى تركيا ويذكر سطحيتها وتفاهتها وأن زعيمها وقائدها محروم من كل ابداع وابتكار ، ومن كل أصالة فى التصميم والتخطيط ، وأنه ليس إلا مقلداً أعمى لأوربا فيقول :

إن كمال الذى تغنى بالتجديد فى حياة تركيا ودعا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم . ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدد ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوربا أصنام جديدة .

إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة ، إنما هى كلها أغان مرددة معادة تتغنى بها أوربا من زمان ، إن الجديد عنده هو القديم الأوربى الذى أكل عليه الدهر وشرب ، ليس فى صدره جديد وليس فى ضميره عالم حديث ، فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوربى المعاصر ، إنه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة ونقد شخصيته (٣) .

---

(١) ص ١٢٤ الحلول المستوردة د . يوسف القرضاوى .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

(٣) جاويد نامه ص ٧٢ نقلا عن ص ٩١ من الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية . للندوى .

ماذا أفاد أتاتورك أو أبو الأتراك كما كان يحب أن ينادى بذلك - من السير فى ركاب أوربا ، لقد حذف الكلمة القائلة فى الدستور التركى القديم بأن دين الدولة الإسلام واستبدل معها القانون المدنى السويسرى بالقانون المأخوذ من فقه الإسلام المدون فى (مجلة الأحكام العدلية) وأباح زواج المسلمات من غير المسلمين ، فلم يول أى جهد فى تغيير ظاهر الدولة العثمانية الإسلامية وباطنها(١) ومع ذلك فلم يأخذ غير الخسران فى الدنيا والآخرة بارتكابه هذه الجريمة النكراء ولقد كان ديوثا عندما أباح للكافر أن يضم المرأة المسلمة بين جناحيه وعندما أنكر صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان وعندما اعترف بأن الإسلام معطل للطاقات .

يقول الإمام الكوثرى :

دلت نصوص الكتاب والسنة على أن دين الإسلام جامع لمصلحتى الدنيا والآخرة ولا حكامهما دلالة واضحة لا ارتياب فيها ، فتكون محاولة فصل الدين عن الدولة كفراً صارخاً .

ثم بين حكم المطالب بهذا المبدأ والمؤيد له والعامل من أجله فيعده : (مبتوراً من جسم جماعة المسلمين وشخصا منفصلا عن عقيدة أهل الإسلام ، فلا تصح مناكحته ولا تحل ذبيحته لأنه ليس من المسلمين

---

(١) ٢٩٣ : ٢٩٤ من كتاب موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ج ٤ ، طبعة ثانية سنة ١٩٨١ دار إحيــــاء التراث العربى — بيروت ، مصطفى صبرى .

ولا من أهل الكتاب)(١) .

ويقول الإمام محمد الخضر حسين :

فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين(٢) .

ويرد الشيخ الخضر على هؤلاء الذين ينادون بفصل الدين عن الدولة فيقول :

وفي القرآن أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات كأحكام البيع والرهن والربا والدين والشهادة وأحكام الزواج والطلاق واللعان والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث وأحكام القصاص والدية وقطع يد السارق وجلد الزاني وقاذف المحصنات وجزاء الساعي في الأرض فساداً ، بل في القرآن آيات حربية .

وهذا يدلك على أن من يدعو إلى فصل الدين عن السياسة إنما يتصور ديناً آخر وسماه الإسلام .

ويعدد الشيخ كثيرة من الأدلة من حياة رسول الإسلام ﷺ والسلف الصالح يؤكد فيها بما لا مجال — معها — الريب على إتصال الدين الإسلامي بالسياسة والدولة ثم يقول :

---

(١) الإمام الكوثري : أحمد خيري ص ٣٦٨ نقلا عن ص ٧١ من مؤامرة فصل الدين عن الدولة — محمد كاظم حبيب ، طبعة أولى سنة ١٩٧٤ دار الإيمان بيروت .

(٢) ص ٣ المصدر السابق .

أراد الحجاج أن يأخذ رجلا بجريمة بعض أقاربه فذكره الرجل بقوله تعالى (ألا تزر وازرة وزر أخرى)(١) .

فيتركه ولم يخطر على باله وهو ذلك الطاغية أن يقول :

ما تلوته دين وما سأفعله سياسة ، ويستطرد الشيخ قائلا : ليس فى الاسلام سلطة دينية إلا على معنى أن الأمير ينفذ أحكام الشريعة المفصلة فى الكتاب والسنة أو المندرجة فى الأصول المأخوذة منها(٢) .

ولا حياة للإسلام ولا وزن لتعبداته إذا لم يكن حكم الاسلام مطبقا وواقعا ملموسا . لأن الله جل جلاله لم يرسل رسوله الكريم بتشريعات العبادة فحسب بل أرسله بالنظام الأكبر الشامل ، المنظم للحياة كافة . حتى تكون الحياة البشرية جديرة بالانسان الذى اصطفاه ربه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وسخر له الكون كله أرضه وسمواته .

وهل يمكن لرسالة عامة للدين والدنيا أن تقوم فى ظل أنظمة وقوانين وشرائع تضاد الفكرة الأساسية لتلك الرسالة ، وتتنافر مع ما أمرت وفرضت وسنت ؟ !!

---

(١) سورة النجم : ٣٨ .

(٢) مجلة نور الاسلام القاهرية ، الجزء الخامس المجلد الثانى ، عام ١٣٥٠ هـ ١٩٣١ م نقلا عن ص ١٩ : ٢٠ ، مؤامرة فصل الدين عن الدولة محمد كاظم ، وانظر كتاب رسائل الاصلاح للشيخ محمد خضر حسين ، ص ١٦٥ طبعة ١٣٩٣ هـ .

وهل يجوز أن يحرم الله شيئا فنحله - كما فعل أتاتورك - ويقرر حدودا فنهملها ويفرض شرائع فننبذها ثم نزعم بعد ذلك بأننا مسلمون وأننا أمة القرآن ، وأننا على الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . ؟ ! !

إن تحطيم فكرة الحكم الاسلامى هو تحطيم كامل لكل مقدسات الاسلام وانهيار شامل لحياتنا ورسالتنا كمسلمين لنا كتاب ولنا شريعة ولنا عقيدة .

إن الاسلام وحدة متماسكة وأنظمة يؤيد بعضها بعضا وعقائد متساندة ترتكز كل عقيدة على أخواتها وانتزاع أى لبنة من الصرح الشامخ يزلزل أسسه ويحطم بنيانه .

لقد كان رسول الاسلام ﷺ كثيرا مايحذر من هذا الموقف الذى يقفه المسلمون اليوم حيث يقول :

لتنقضن عرى الاسلام عروة عروة فأولهن نقضا الحكم وآخرهن الصلاة) فلاوجود للصلاة ولاوجود للإسلام إذا نقض الحكم الاسلامى وإذا فقد العالم الاسلامى شخصيته المميزة ودولته القائمة وشريعته الحاكمة .

إن التشريع فى كل أمة هو روحها وقلبها ومكون فكرها ومحدد أخلاقها ومنظم شئونها والمهيمن على توجيهاتها :

والحكم فى كل شعب هو مظهر السيادة ومجلى القوة للفكرة التى يمثلها الشعب والعقيدة التى يدين بها ، والغاية التى يحيا من أجلها ، ولن تتكون الأمم الإسلامية ولن تقوم رسالة القرآن كاملة إلا إذا وجدت الحكومة الإسلامية التى تستظل بالقرآن وتحمل اللواء الذى رفعه

المؤمنون فى وجه الجاهلية العالمية كافة أيا كان مكانها من هذا الكوكب ( ) .

إن صيحة « أتاتورك » التى تنادى بأن شريعة الله التى ارتضاها لعباده وفرضها لا تلائم الحضارة ولا تتمشى مع التطور وتضيق بحاجيات الحياة للإنسان المتعلم الراق ويختنق الطموح فى نفوس أتباعه ، لهى صيحة من صميم الجاهلية التى تحارب الاسلام وتتربص به الدوائر .

وإذا كانت شريعة الاسلام فاسدة فعباداته كذلك ، وحتى لو سلمت العبادات ففساد الجزء يهدم الكل وظهور العجز فى جزء يزيل القداسة الربانية عن المجموع .

ولذلك فقد ذهب « أتاتورك » وقد تحمل وزر هذا العمل ووزر الأجيال القادمة والمتابعة إلى يوم القيامة .

---

(١) ص ٥١ : ٥٢ دولة القرآن ، طه عبد القادر سرور ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة القاهرة .

ثانيا : الإسلام وأصول الحكم :

وكان من الثمار المرة أيضا ظهور كتاب الشيخ على عبد الرازق عام ١٩٢٥م بعنوان « الإسلام وأصول الحكم »(١) .

---

(١) لقد أثبت الدكتور محمد ضياء الدين الريس بأن الشيخ على عبد الرازق ليس له فى هذا الكتاب المذكور إلا وضع اسمه عليه فقط وقد استدل على ذلك بما يأتى .

أولا : كان على عبد الرازق وأسرته من أعضاء حزب الأمـــة الموالى للانجليز ، الكاره للخلافة الاسلاميه ، وهدف الكتاب هو مهاجمة هذه الخلافة .

ثانياً : أسلوب هذا الكتاب لا يصدر إلا من عدو عنيد للاسلام ، ولا يعقل أن يكون مؤلفه مسلما .

ثالثاً : قول الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية فى كتابه « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » الذى رد به على الشيخ على عبد الرازق مانصه (لأنه علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف ان الكتاب ليس له فيه إلا وضع اسمه فقط ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار . وألبسوه ثوب الخزى والعار إلى يوم القيامة .

رابعاً : أسلوب الكتاب يرجح أن يكون للمستشرق الإنجليزى المستر : « مرجوليوث » اليهودى الذى كان يعمل أستاذاً للغة العربية فى بريطانيا أوغيره من المتمرسين فى الكتابة ضد الاسلام .

وقد حاول فيه مؤلفه أن يقول : إن الحكم ليس من طبيعة الاسلام دين لا علاقة له البتة بالسياسة والحكم ، أو بالتعبير فى شيء وأن الاسلام الحديث علمانى وبث فيه من الآراء التى تعمل على هدم كثير من مقومات الاسلام والمجتمع الاسلامى .

كما أنكر القضاء كله ، وشوه - بالباطل - طبيعة الاسلام وحاول أن يبطل جانبه العملى . بل إن الشيخ على عبد الرازق(١) مس مقام

= خامسا : خمول الشيخ على عبد الرازق وعدم ضلاعته فى التأليف حتى يصدر عنه هذا الكتاب .

سادسا : الأدلة الكثيرة ولغة الحديث التى يتكلم بها المؤلف وكأنه ليس من المسلمين أو ممن ينتمى إلى الاسلام وغير ذلك كثير وكثير . انظر انظر ص ٢٠٧ وما بعدها من كتاب : (الاسلام والخلافة فى العصر الحديث) نقد كتاب الاسلام وأصول الحكم للدكتور محمد ضياء الدين الريس ، مكتبة دار التراث بالقاهرة سنة ١٩٧٢ ، طبعه ثانيه أو ص ١٧٢ من نفس الكتاب والمؤلف طبعه أولى .

سابعاً : يقول الدكتور ممدوح حقى فى كتابه : (بحث فى الخلافة والحكومة فى الاسلام ص ٦٠ طبعة بيروت سنة ١٩٧٨ . بأنه رجع إلى كتاب الخلافة للسير توماس أرنولد ، فوجد أنه لافرق بين رأى الشيخ على عبد الرازق ورأى توماس الإنجليزى .

(١) من المعروف أن هذا الرجل كان خريج الأزهر وأن الأزهر الشريف أدانه وطرده من زمرته .

الرسول الكريم ﷺ فظل يتساءل هل كان النبي رسولا أو كان رسولا وملكاً ؟

وادعى أن جهاده لم يكن جزءاً من رسالته ووجه طعناً إلى الصحابة رضوان الله عليهم وإلى خليفتي الرسول الصديق والفاروق — وهم المثل العليا للمسلمين — بأن ادعى بأنهم كانوا يعملون من أجل الدنيا والفتح والاستعمار لا من أجل الدين ، وحاول أن يجعل بين الدين والدنيا عداوة شديدة .

فهما — في رأيه — ضدان لا يجتمعان وعدوان لا يلتقيان ، والدين الاسلامي خاصة لم يأت من أجل الدنيا ، وليس له تشريع يتصل بالدنيا ، والله جل جلاله لا يعبأ بأمر الدنيا . فهي أهون عليه من أن يبعث لها دينا أو يرسل إليها رسولا ، وإنما يتركها — في رأيه — لعقولنا وشهواتنا .

وحيث إن أحوال المجتمع والسياسة والحكومة والخلافة من شئون الدنيا فالاسلام كدين ليس له بها علاقة .

لقد قرر فصل الدين عن الدنيا فصلا تاماً ، فجعـــل الدين يضاد الدنيا مضادة شاملة : انظر إليه وهو يتحدث عن هذا كله فيقول عن الخلافة :

إن الخلافة في الإسلام لم ترتكز إلا على أساس القوة الرهيبة ، وأن تلك القوة كانت إلا في النادر — قوة مادية مسلحة(١) (وإذ كان في

---

(٢) ص ٢٨ الاسلام وأصول الحكم للشيخ على عبد الرازق .

الحياة الدنيا شيء يدفع المرء إلى الاستبداد والظلم ويسهل عليه العدوان والبغي فذلك هو مقام الخليفة) (١) .

والواقع أن صلاح المسلمين فى دنياهم لا يتوقف على شيء من ذلك ، فليس بنا حاجة إلى تلك الخلافة لأمور ديننا ولا لأمور دنيانا ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين وينبوع شر وفساد(٢) .

واستمع إليه وهو يتكلم عن حكومة الرسول فيشبعها غمزا ولمزا وطعنا وتجرؤا على حكام الرسول العظيم ﷺ — إذ يقول :

إذا كان رسول الله ﷺ قد أسس دولة سياسية ، أو شرع فى تأسيسها ، فلماذا خلت دولته من كثير من أركان الدولة ودعائم الحكم ؟ .

ولماذا لم يعرف نظامه فى تعيين القضاة والولاة ؟ ولماذا لم يتحدث إلى رعيته فى نظام الملك وفى قواعد الشورى ، ولماذا ترك العلماء فى حيرة واضطراب من أمر النظام الحكومى فى زمانه . ؟ ولماذا؟ ولماذا؟ ثم يفصح عن نيته ويقول :

إن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة دولة(٣) .

---

(١) ص ٢٩ المصدر السابق .

(٢) ص ٥٧ المصدر نفسه .

(٣) ص ٩٤ الاسلام وأصول الحكم .

ويقول بعد أن تكلم عن السياسة والدولة وتدبير المصالح للناس .

ذلك من أغراض الدنيا — والدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات — أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول وحبانا من عواطف وشهوات ، وعلمنا من أسماء ومسميات . هي أهون عند الله تعالى من أن يبعث لها رسولا ، وأهون عند رسل الله تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها (١) .

---

(١) ص ٧٨ — المصدر المذكور .

دعوة على عبد الرازق فى ميزان النقد

لقد أنكر على عبد الرازق فى كتابه - الإسلام وأصول الحكم - صلة الأديان بالدنيا من أولها إلى آخرها وفى جميع غاياتها وأغراضها.

وماذا يبقى للدين - بعد ذلك - إلا أن يكون عبادة يؤديها أفراد وينتهى الأمر.

إنه يقول على الإسلام بالذات: (إن كل ما جاء به الإسلام فإنما هو شرع دينى خالص لله تعالى وسيان أن يكون منه للبشر مصلحة مدنية أم لا. فذلك مالا ينظر الشرع السماوى إليه، ولا ينظر إليه الرسول(١).

ويقول (الإسلام دعوة دينية إلى الله تعالى)(٢) ثم يزعم أن الذين بحثوا فى معنى الرسالة أغفلوا دائماً أن يعتبروا التنفيذ جزءاً من حقيقة الرسالة إلا إبن خلدون(٣).

فالإسلام - فى رأيه - كان دعوة فقط دون تنفيذ، وما جدوى الرسالة عندك أيها الشيخ المستشرق إن لم تنفذ؟

وها هى آيات من القرآن الكريم تحث النبى ﷺ على التنفيذ:

(يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين) (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء).

---

(١) ص ٨٥ الاسلام وأصول الحكم.

(٢) ص ٧٦ المصدر السابق.

(٣) راجع ص ٥٦ من المصدر المذكور.

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) .

(وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون) (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .

وآيات كثيرة غير ذلك وكلها تأمر رسول الإسلام بالتنفيذ وأن الإسلام دعوة وتطبيق ورسالة وحكم ودين ودولة

فكيف يزعم هذا الشيخ بأنه لا تنفيذ للرسالة ؟ ولماذا يدعو إلى أن تكون الشريعة معطلة ؟ والقرآن الكريم صريح جداً فى تكليف النبي بتنفيذ شريعة الله وأوامر الله والعمل والجهاد والحكم ، بل إن القرآن الكريم كله أحكام وأوامر من الله بالتنفيذ للنبي وأمته(١) .

لقد غزا الرسول ﷺ بعد هجرته إلى يثرب ٢٧ غزوة ، وأرسل ٤٩ سرية وبعث ٢٤ بعثاً ، فمجموع المعارك التى خاضها الرسول - ومن اتبعه - خلال اثنتى عشرة سنة فقط ٩١ معركة .

ولقد سجلتها بالأرقام - كما ترى لا بالحروف لينفذ إليها البصر بسرعة ويحكم حسباتها بلمحة ويقدر الجهد الجبار الذى بذله صاحب الرسالة عليه السلام فى ارساء قواعد الدولة واهتمامه بتصريف أمورها

---

(١) ص ٢٧٥ الاسلام والخلافة فى العصر الحديث . د . ضياء الدين الريس .

وحل مشاكلها الحاضرة ووضع الأسس العامة ليسير عليها أتباعه ـ إيماناً منه بأن المسلمين لابد سائرون على طريقه بعد أن وطد لهم الأساس وأحكم البيان ، وصاغهم صياغة جديدة نبيلة مثالية .

وكيف نسى هذا الشيخ أن النبي ﷺ وهو يأتيه وحى السماء كان بالمحراب إماماً وكان في الميدان قائداً وكان في الأسواق تاجراً وكان في خصومات الناس قاضياً وهو القائل :

(إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً يقبله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها(١) .

وكذلك بعث علياً وخالداً ومعاذاً إلى جهات متعددة للغرض نفسه .

لقد تحدث القرآن عن العدل وتحدث عن الشورى وتحدث عن العلاقات الخارجية للدولة الاسلامية (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون(٢) .

فالذى يقطع العلاقة بين الاسلام وبين الدولة يكون صاحب هوى مشوش الفكر سقيم الفهم مضطرب العقل حيث اعتبر الاسلام كغيره من الأديان التي شوهت بيد الانسان .

(١) البخارى فى كتاب الشهادات ص ١٧ ج ٣ .
(٢) سورة الممتحنة الآية ٩ .

إننا لا نوافق على ما ذهب إليه هذا الكاتب من الفصل بين الدين والدنيا ولا نوافق على رأيه فى احتقار الدنيا ، ذلكم أن الدنيا فى الإسلام خير وبركة ونعمة وهى أساس الآخرى وطريقها ، وقد خلق الله الناس والحياة فيها فهو جل جلاله يهتم بصلاحها وصلاح الناس ، وحفظ الحياة وتقدم العمران بل جعل الله الناس خلفاءه فى الأرض .

ولذا فقد أرسل الله الأنبياء والرسل لهداية الناس وتحقيق كل هذه الأغراض الصالحة ، وكلها تتمثل بكمالها فى الاسلام الذى بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ليكمل به دين الله وليحقق صلاح العمران ، وتتم سعادة الناس فى الدنيا والآخرة .

وهذا ما يقوله علماء الاسلام ها هو ابن خلدون يقول فى مقدمته :

(واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية الآخرة ومن فقد المطية فقد الوصول ، وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعه من أصله ، إنما قصده تصريفها فى أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقاً) .

وقرر الإمام الغزالى أن نظام الدين لا يحصل عليه إلا بنظام الدنيا .

وشرح الإمام الرازى فى تفسيره الكبير للقرآن الكريم ما هو المعنى المراد من الإشارات فى بعض الآيات إلى الدنيا محدداً ومؤكداً — حتى لا يفهم الجهلاء مثل الكاتب المشار إليه ومن تبعه غير ذلك .

قال الإمام الرازى وقد سبق بذلك فلاسفة العصر الحديث :

(إعلم أن الحياة الدنيا حكمة وصواب) وبرهن على ذلك بكثير من الأدلة منها : استخلاف الله فيها للنوع الإنسانى كما قال تعالى (إنى جاعل

فى الأرض خليفة) وأن الحياة حقه (الذى خلق الموت والحياة) .

ولأنه لا يفعل العبث كما قال جل شأنه (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) ولأن الحياة نعمة بل هى أصل لجميع النعم وعظم الله المنه بخلق الحياة ثم قال الإمام :

(بل المراد أن من صرف هذه الحياة لا إلى طاعة الله بل إلى طاعة الشيطان ومتابعة الهوى فذلك هو المذموم) .

إن دعوة القرآن إلى أن الدنيا دار اختبار وابتلاء وأنها مرحلة أولى تسبق مرحلة الآخرة . لا تعنى إطلاقاً دشرية، هذه الدنيا ولا الانصراف عن متعها وزينتها ، ومن ثم لا تعنى أن الاشتغال بها أمر قليل الشأن فى ذاته ، وأقل شأناً من الاشتغال بدين الله .

إن أبا بكر رضى الله عنه ـ وله حظه فى الإسلام وفى الدعوة إلى دين الله — كان يباشر أمراً من أمور الدنيا . . فى التجارة . حتى بعد أن ولى أمر الخلافة اراد الاستمرار فى النزول إلى الأسواق ومباشرة تجارته ، حتى لقيه عمر رضى الله عنه ونصحه بالإعراض عن ذلك ، طالما هو فى شغل بأمر المسلمين ثم جمع الصحابة وسألهم أن يقرروا له فى بيت المال ما يسد حاجته ، فقرروا له ما يكفيه وأسرته .

فلو أن التجارة مثلا كشأن من شئون الدنيا شر ، أو بخس فى نظر الإسلام لما أقبل عليها مسلم له قدم راسخة فى الاسلام كأبى بكر رضى الله عنه ، واتخذ منها مصدر رزقه ومعيشة أسرته ، فضلا عن أن يرغب فى الاستمرار فى ممارستها بعد أن ولى أمر المسلمين . بل إن القرآن الكريم يطلب صراحة ألا يكون أداء العبادة عاملا على تجاهل الدنيا وعدم الحركة فيها لتحصيل الرزق ، كما لا يكون السعى فى الدنيا شاغلا عن أداء العبادة فيقول :

(يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)(١) .

فأداء العبادة له منزلته فى الاسلام . وأداء السعى فى تحصيل متع الحياة له منزلته فى الاسلام كذلك ، لأنه إذا كانت العبادة تحمل على استقامة الأسلوب فى تحصيل متع الحياة فإن تحصيل هذه المتع بسعى الانسان يعين بدوره على الاستمرار فى العبادة .

والشىء الذى يحول الاسلام دونه عند تحصيل متع الحياة الدنيا هو الاسراف فى الاستمتاع بها لأنه يترتب عليه : إما منع الآخرين من حقهم فى الحياة ، وإما الاساءة إلى الذات نفسها بكثرة ما تستمتع به ، يقول الله تعالى (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين)(٢) .

فينهى عن المبالغة فى الاستمتاع بالأكل والشرب أى بمتع الحياة الدنيا ولكنه لا ينهى عن تحصيلها والاستمتاع بها ، وتقدير الدنيا فى — نظر الاسلام — على أن متعها أمر مرغوب فيه لا يجعل شئونها فى سياسة الدولة أمراً بخساً(٣) .

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢٩ .

(٢) سورة الأعراف الآيه ٣١ .

(٣) ص ٣٤ وما بعدها بتصرف — الدكتور محمد البهى العلمانية والاسلام بين الفكر والتطبيق .

فالدنيا إذن ليست منفصلة عن الآخرة ولا ضدها ، والدين ليس منفصلا عن الدنيا ولا ضدها ، والله تعالى يرعى شئون خلقه ويريد هدايتهم وصلاحهم فى جميع أحوالهم - أفراداً أو مجتمعين - والروح والمادة ممتزجان ومتآلفان وليسا منفصلين ولا متضادين ، وإلا فإن انفصال أحدهما عن الآخر معناه الفناء .

الاسلام إذن نظام كامل أو فلسفة شاملة كاملة تجمع بين الدين والدنيا والدين والدولة وشريعة تنظم شئون الدنيا والآخرة وهذه حقيقة وهذا ما بينه القرآن الكريم ودعا إليه الرسول العظيم ﷺ ونفذه وهذا ما وعاه الصحابة ونفذوه ، وهذا هو ما قرره كل علماء الاسلام وما سار عليه واعتقده المسلمون . بل إن الباحثين من غير المسلمين فهموا ذلك أيضاً به فمثلا يقول الدكتور « شاخت » الألمانى بعد تخصصه فى شريعة الاسلام :

(على أن الاسلام يعنى أكثر من دين . إنه يمثل أيضاً نظريات قانونية وسياسية وجملة القول إنه نظام كامل من الحضارة يشمل الدين والدولة معا) .

ويقول « نللينو » الايطالى :

لقد أسس محمد فى وقت واحد دينا ودولة وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته(١) .

---

(١) أنظر ص ٢٨ وما بعدها : الاسلام والخلافة فى العصر الحديث . الدكتور محمد ضياء الدين الريس ، طبعة ثانية سنة ١٩٧٢ م ، دار التراث بالقاهرة .

ويقول « مريسون » :

(إن الحق الذى لا يمارس فيه أحد . أن الإسلام أكثر من معتقد ودين إنما هو نظام إجتماعى تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها) .

ويقول « اميل درمنجم » :

(الإسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية ، وليس عقيدة روحية لا صلة لها بالمادة ولا بالحياة ، وإنما الاسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح والدنيا والآخرة ، جسم وروح . دولة ودين وحياة وغيب ، والاسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيد لنظريات الاجتماع الحديثة بل لأنه يدفع الانسان دوما إلى الأمام :

ويقول « جورج روبير » :

(إن الاسلام ليس ديناً فحسب ، إنه آخر الأديان التى ظهرت فى التاريخ وأنه أيضاً وبصفة خاصة مجتمع روحى واجتماعى ونظام سياسى وأسلوب للعيش ولقد أعطى الاسلام للدنيا حقها وللآخرة حقها فلا نرهق الروح على حساب البدن ولا يرهق البدن على حساب الروح ، فالازدواج كامل بين الروحية والمادية فى شخصية المسلم) .

ويقول « ريتشارد هارتمان » :

(قلما نجد بين الأديان الكثيرة ديناً ينفذ إلى حياة معتنقيه كلها فردية كانت أم جماعية مثل الاسلام ، وذلك أنه جمع السلطة الدينية فى شكل الدولة السياسى ووقى خطر التفرقة بين أمور الدين وأمور الدولة وقد ألبس الدين ثوب التشريع والفقه)(١) .

---

(١) ص ١٩٥ ، وما بعدها من سقوط العلمانية ، للأستاذ أنور الجندى .

وهكذا يقرر المنصفون من غير المسلمين أن الاسلام دين ودولة . مادة وروح ، حضارة كاملة شاملة ، بينما نجد الشيخ المسلم يزعم أن الاسلام دعوة دينية فقط لا صلة لها بالدولة أو بالدنيا أو بالحياة ، وهذا زعم خطير جداً يمهد للفكرة التى يحاول الغرب أن يبثها فى عقول المسلمين ليفرق ما بين الدين والدولة .

إن دين الاسلام الذى ارتضاه الله لعباده جميعاً يرفض عزله عن نظام الحياة فى الدولة ، وذلك لأن السياسة والحكم والقوانين لا يمكن فصلها عن شريعة الله لأنها تستمد منها مفاهيمها ، لأن الحديث السائد فى المجتمع من المجتمعات يحدد أساليب هذه المجالات ومضامينها بالضرورة .

فلا يمكن فصل الفلسفة عن الدين وفيها تفكير فى قضايا الوجود الكبرى ومنشأ البشرية والمصير والهدف ومعنى الوجود ، ولا يمكن فصل الآداب والفنون عن الدين وهى تتخذ من رؤية الانسان للحياة وقيمه وأخلاقياته وصراعاته النفسية مضامين لها وكلها متصل بالدين .

ولا يمكن فصل الاقتصاد عن الدين وفيه قضايا حياه الانسان نفسه وتحريره من ذل الحاجة وعبودية من يملكون مصادر الرزق ، وفيه الحل لقضايا التكافل وتحقق كرامة الإنسان فى الدنيا .

ولا يمكن فصل التعليم عن الدين وهو الذى يبنى شخصية الفرد وسلوكياته ونظرية للحياة لأن الدين نفسه يتجسد فى هذه الأشياء .

ولا يمكن فصل الدين عن الحياة الإجتماعية لأن الدين ما جاء إلا لسياسة وصياغة العلاقات الإجتماعية وتحديد صلة الإنسان بأخيه الإنسان ، كذلك لا يمكن فصل الدين عن ميدان القانون والتشريع ،

فما جاء الدين إلا وبه قوانين لتشكيل الحياة الفردية والاجتماعية وتحديد مفاهيم الحل والحرمه واختيار الالتزام بطاعة أوامر الله جل جلاله .

ومن هذه فقد أخطأ كل من صور له هواه أو وسوس له شيطانه أن فصل الدين عن الدولة هو الطريق السليم لنهضة الأمة وتحقيق حضارتها المنشودة (١) .

وليس من هدفنا أن نسترسل فى الرد عليه وإنما فقط أردنا أن نوضح كثرة الأباطيل التى جاء بها الكاتب فى كتابه ، والتى لم تخدم إلا أعداء الاسلام الذين فرحوا بهذا الكتاب وقاموا بنشره على أوسع نطاق واستغلوه فى الاستدلال به على ما أرادوا الوصول إليه من إقامة العلمانية فى بلاد المسلمين جميعا (٢) . إدعاء منهم أن الإسلام مثـــل المسيحية لا شأن له بأمور الحياة والناس وهـذا زعم باطل وإدعاء كاذب لا أساس له من الصحة فليس الإسلام كالمسيحية فى شىء بل الإسلام هو الدين الذى اختتم الله به سلسلة الأديان السماوية ورضيه للناس جميعا .

ومن هنا فقد جاء نظاما كاملا يصلح حياة الناس ويبين لهم طريق المدنية والحضارة ويأخذ بيد الإنسان — بالايمان والعلم والعمل والفكر والنظر — إلى قمة الرقى والتقدم .

---

(١) ص ٣٤ — ٣٥ ورقة ثانية فى الرد على العلمانيين د . محمد يحيى طبعه أولى الزهراء للاسلام العربى بتصرف .

(٢) عند صدور هـذا الكتاب : (الاسلام وأصول الحكم) للشيخ على عبد الرازق ثار حماة الدين . علماء الأزهر الشريف . فأمرت الحكومة المصرية بجمع الكتاب وحرقه ، ثم سحبت من على عبد الرازق شهادته العلمية .

إن الاسلام يختلف عن المسيحية فى كثير من الأسس والاتجاهات ، فقد حرفت المسيحية بيد الأهواء البشرية بينما تكفل بارىء السماء والأرض جل جلاله بحفظ دين الاسلام بحفظ دستوره الخالد : القرآن الكريم : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(١) .

ولقد كانت المسيحية دعوة خاصة لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة بينما جاء الاسلام للبشرية جمعاء : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيراً) (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (إن هو إلا ذكر للعالمين) (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) .

هذا ويمكن أن نبين أهم أوجه الاختلاف بين المسيحية والإسلام فى النقاط الآتية :

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

الفرق بين الإسلام والمسيحية

لا نريد أن نطيل فى بيان الفروق بين المسيحية والإسلام وإنما فقط نضع أمام الدنيا قاطبة الحقائق الآتية :

أولا : إن موقف المسيحية فى أصلها وفى حياة المسيح وتلاميذه من بعده حتى القرون الثلاثة التالية ، موقف المسالم للدولة لا تصطدم معها فى تشريع ولا تفرض عليها رجال دين يتحكمون فى شئونها . وإن موقف الإسلام موقف المؤيد للدولة المتعاون معها فى تحقيق أهدافها وأداها رسالتها ، بل إن العرب لم يكن لهم دولة فى الجاهلية : فأسسها لهم الإسلام .

ثانياً : إن المناداة بفصل الدين عن الدولة فى تاريخ المسيحية عود بها إلى وضعها الأول الصحيح وإن انحرافها عن هذا المبدأ جر عليها وعلى شعوبها البلاء والشقاء .

أما فى الإسلام فإن المناداة بفصل الدين عن الدولة انحراف به عن وضعه الصحيح . وإن وقوع هذا الفصل فى بعض مراحل التاريخ هو الذى جر على الإسلام وعلى المسلمين البلاء والشقاء .

ثالثاً : إن فصل الدين عن الدولة فى تاريخ أوربا ، كان فى عصر نهضتها الكبرى ، ولقد سارت من بعده حرة طليقة تسيطر على شئون العالم وتتحكم فى مصائره ، أما فى الإسلام فإن أزهى عصور حضارته وأحفلها بالقوة والمجد وأجداها على الإنسانية هى العصور التى قامت فيها دولته على مبادىء شريعته . وما حدث الجفاء بين الدين والدولة إلا فى عصور الضعف والجمود والفوضى .

رابعاً : إن ربط الدولة بالدين — في أوربا — أدى إلى اضطهاد الفكر وخنق الحريات وقيام الحروب الدينية المفجعة ، وخضوع الناس لكابوس الخرافة والجهالة والبؤس ، أما ربط الدولة بالدين — في عصور الإسلام الزاهرة — فقد أدى إلى انطلاق الفكر وحماية الحريات الدينية وإشاعة السلام بين أبناء الديانات وتحرير الناس من أوهام الخرافات والشعوذة وتحقيق الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية بين أبناء الشعوب.

خامساً : إن علاقة الدين بالدولة — في تاريخ القرون الوسطى — جعل من رجال الدين طبقة تمثل السيطرة والاستعلاء والاضطهاد والتعصب ، ولكن علاقة الدين والدولة — في عصور الإسلام الزاهرة — لم يخلق مثل هذه الطبقة إذ الإسلام نفسه لا يعترف بوجودها فكيف يعترف بحقها في السيطرة والاستعلاء(١) ؟

إن الله جل جلاله يقول لرسوله الكريم (لست عليهم بمسيطر)(٢) والرسول ﷺ كان يقول بأمر من ربه تبارك وتعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)(٣) .

وأبو بكر خليفة رسول الله ﷺ كان يقول : (أيها الناس وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أخطأت فقوموني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم) فطاعة خليفة

---

(١) ص ٧٦ — ٧٨ الدكتور مصطفى السباعي : الدين والدولة في الإسلام .
(٢) سورة الغاشية آية ٢٢ .
(٣) سورة الكهف الآية ١١٠ .

الرسول مشروطة بطاعة الله جل جلاله وتنفيذ منهجه وتطبيق شريعته، شريعة الإسلام السمحاء .

فالإسلام ليس فيه رجال دين أو كهنوت بالمعنى الكنسي وليس هناك من رجاله من يمنح غفراناً أو يهب جنة أو يعطى نفسه عصمة أو سلطة ليس له أو ليس من حقه . بل الناس كل الناس فى دين الإسلام سواسية لا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ونشر الخير بين الناس جميعاً .

ولقد صنع السلف الصالح حضارة ساحقة — عندما ساروا على هدى دينهم وسنة نبيهم - حضارة : سعدت بها الإنسانية جمعاء ومنحهم الله - بفضل طاعته وتطبيق شريعته - عزاً بعد ذل وقوة بعد ضعف ، وأمناً بعد خوف ، ووحدة بعد تفرق وتمزق (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون)(١) .

وعندما ترك المسلمون هدى ربهم واتباع رسولهم وأخذوا يهرولون وراء قوانين أوربا وتشريع الغرب أو الشرق عادوا إلى ضعف بعد قوة وتفرق بعد وحدة وأصبحوا فريسة سهلة لأعدائهم وأعداء دينهم ورضوا بالذل والهوان بعد رغد عيش وكبير مجد وعزة .

يقول العلامة « ليوبولد فايس » أو محمد أسد .

إن الحياة الاسلامية فى الواقع تظهر على كل حال فى أيامنا الحاضرة بعيدة جداً عن الامكانيات المثلى التى تقدمها التعاليم الدينية فى الاسلام

---

(١) سورة الانفال آية ٢٦ .

من ذلك مثلا أن كل ما كان فى الاسلام تقدما وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخيا وركوداً ، وكل ما كان فى الاسلام من قبل كرما وإيثاراً أصبح اليوم بين المسلمين ضيقا فى النظر وحبا للحياة الهينة ثم يقول :

إن ثمة سببا واحداً فقط للانحلال الاجتماعى والثقافى بين المسلمين وذلك السبب يرجع إلى الحقيقة الدالة على أن المسلمين أخذوا شيئا فشيئا يتركون أتباع روح التعاليم الاسلامية ، فنتج من هذا أن الاسلام ظل بعد ذلك موجوداً لكنه كان جسداً بلا روح ، ثم إن العنصر الاسلامى الذى خلق قوة العالم الاسلامى من قبل هو المسؤول عن ضعف المسلمين ، فإن المجتمع الاسلامى بنى من أوله على أسس دينية وضعف هذا الأساس قاد بالضرورة إلى ضعف البناء الثقافى فيه وربما كان سببا لاضمحلاله بالكلية .

وكنت كلما زدت فهما لتعاليم الاسلام من ناحيتها الذاتية وعظم ناحيتها العلمية إزددت رغبة فى التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقا تاما على الحياة الحقيقية)(٢) .

أجل ترك المسلمون العمل بشريعة الاسلام فأصبحوا أهون الناس عن الناس وها هو الأستاذ أبو الأعلى المودودى بين لنا متى بدأ المسلمون يتفلتون من تطبيق شريعتهم فيقول :

إن أول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الاسلامية هو الهند ، وكانت هذه الشريعة هى قانون الدولة العام فى الهند حتى بعد أن قام فيها الحكم الانجليزى ، فكانت يد السارق تقطع إلى سنة ١٧٩١ ، ولكن الانجليز

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق (ص ١١ محمد أسد .

أخذوا بعد ذلك يلغون القانون الإسلامى آنا بعد آن ويستبدلون به القوانين الوضعية حتى تم إلغاؤها فى أواسط القرن التاسع عشر ولم يبق منه تحت النفاذ إلا ما كان يتعلق بمسائل النكاح والطلاق وغيرهما على اعتباره قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية .

ثم على منوال الحكومة الإنجليزية فى الهند نسجت الأقطار التى كانت حكومات المسلمين أنفسهم قائمة فيها فصاغت جميع ولايات الهند المسلمة قوانينها العامة شيئاً فشيئاً حسب قالب القانون الجارى فى الهند البريطانية وضيقت نطاق الشريعة إلى قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية(١) .

هذه بعض الفروق بين الإسلام والمسيحية — أو بعبارة أدق بعض الحقائق نضعها أمام الدنيا قاطبة حتى يعلم أعداء الاسلام بأنه الدين الوحيد الذى نظم الحياة والحكم وشمل الدين والدولة هو الاسلام الحنيف الذى جاء بشريعة وأمر تنفيذها وتحكيم تعاليمها فى حياة البشر ولو كره ذلك الشيخ على عبد الرازق ومن يسير على شاكلته .

---

(١) ص ٤٠ – ١١ المودودى : القانون الإسلامى وطرق تنفيذه (هامش) .

ثالثاً : دعوة الدكتور طه حسين فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) .

وكان من الثمار المرة كذلك دعوة الدكتور طه حسين إلى تقليد الغرب واتباع مناهجه فى الخير والشر وذلك فى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » .

فالدكتور طه حسين يرى فى هذا الكتاب أن سبيل النهضة (واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا إلتواء وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً – ونكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب)(١) ، (وأن نشعر الأوربى بأننا نرى الأشياء كما يراها ونقوم الأشياء كما يقومها ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها) (٢) .

ويزعم فى هذا الكتاب أن المسلمين أدركوا أصلا من أصول الحياة الحديثة وهو « أن السياسة شىء والدين شىء آخر ، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على شىء آخر .

وهذا التصور هو الذى تقوم عليه الحياة الحديثة فى أوربا ، فقد تخففت أوربا من أعباء القرون الوسطى وأقامت سياستها على المنافع الزمانية لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس(٣) .

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر – د. طه حسين فقرة ٤١ – ٥٩ من طبعة المعارف سنة ١٩٤٢ م .

(٢) ص ٤٤ المصدر السابق .

(٣) مستقبل الثقافة ص ١٧ – ١٨ .

ويشيد الدكتور طه حسين بثقافة الغرب عامة وثقافة فرنسا خاصة ويوضح إعجابه الشديد بهذا الفكر وتلك الثقافة بل وبالحياة الفرنسية في كل صورها إذ يقول :

كل شيء في فرنسا يعجبني ويرضيني : خير فرنسا وشرها ، حلو فرنسا ومرها ، نعيم فرنسا وبؤسها ، كل ذلك يروقني ويلذني . وتطمئن إليه نفسي إطمئناناً غريباً .

إني لأحس نفسي تسبق القطار إلى باريس على سرعة القطار ، ثم يصف نساء فرنسا بقوله :

أما النساء فلهن منطق معقول : هن متجردات بالنهار على الساحل متجردات في الليل إذا أقبلن إلى الكازينو . ولكنهن لا يظهرن من أجسامهن ما يظهرن في النهار وإنما يظهرن في النهار نصفاً وفي الليل نصفاً آخر . للنهار الإعجاز والليل الصدور(١) .

ويحاول الدكتور طه حسين — خدمة لأهداف الغرب — أن يهدم اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - وذلك بالدعوة إلى اللهجات العامية المحلية تحت الدعوة إلى تطوير اللغة العربية فيقول :

وفي الأرض أمم متدينة - كما يقولون - وليست أقل منا إيثارا لدينها ولا احتفاظا به ولا حرصا عليه ، ولكنها تقبل في غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ، ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة ، وتؤدى بها صلواتها .

---

(١) ص ٥٠ طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام - أنور الجندي الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧ الطبعة الثانية .

فاللاتينية مثلاهى اللغة الدينية لفريق من النصارى ، واليونانية هى اللغة الدينية لفريق آخر والقبطية هى اللغة الدينية لفريق ثالث والسريانية هى اللغة الدينية لفريق رابع(١) .

وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هى اللغة العربية . ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيمانا بالإسلام واكباراً له وذياداً عنه وحرصا عليه(٢) .

وينبغى لقارىء هذا النص أن لا ينسى الشعار الذى اتخذه الدكتور طه حسين فى صدر كتابه حين أثبت على غلافه أبيات المعرى التى تقول :

خذى هذا وحسبك ذاك منى   على ما فى من عوج وأمت
وماذا يبتغى الجلساء منى   أرادوا منطقى وأردت صمتى
ويوجد بيننا أمد بعيد   فأموا سمتهم وأممت سمتى

وهى أبيات واضحة الدلالة على أن المؤلف لا يصرح بكل ما فى نفسه ، وأنه قد أخفى ما يخشى أن يعرضه لمثل ما تعرض له حين أخرج كتاب الشعر الجاهلى(٣) .

---

(١) هذا الكلام ليس من صنع طه حسين فهو ترديد لما قاله القاضى الانجليزى ولمور من قبل فى كتابه (عامية مصر) ص ١٥ طبعة لندن سنة ١٩٠١ انظر ص ٢٩٨ من كتاب حصوننا مهددة من داخلها د . محمد محمد حسين طبعة خامسة سنة ١٩٧٨ المكتب الإسلامى - بيروت - دمشق .

(٢) ص ٢٢٩ - ٢٣٠ الفقرة ٤٦ مستقبل الثقافة - فى مصر د . طه حسين .

(٣) انظر ص ٢٩٩ حصوننا مهددة من داخلها د . محمد محمد حسين .

ويرفع الدكتور طه حسين صيحة مدوية ونداء حاراً يدعو فيه إلى أن نبنى كلية فى الغرب حيث يقول :

(نريد أن نتصل بأوربا إتصالا يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءاً منها لفظا ومعنى وحقيقة وشكلا)(١) وينادى بالتجديد بل ويحدد طريق هذا التجديد فيقول :

والتجديد هو مسايرة للغربيين فى كل شىء ، وهو أخذ كل ما عند الغربيين من فكر ومنهج للبحث وحضارة وعادات وتقليد فى فصل الدين عن السياسة ويحاول أن يبعد الدين واللغة عن مجال الترابط وفى ذلك يقول :

أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ زمن بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين العدل . والدين عند صاحب كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » ظاهرة اجتماعيه يقول الدكتور طه حسين للدكتور محمد حسين هيكل قبل أن يلى الوزارة :

ان العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وإلى الفقه وإلى اللباس من حيث ان هذه الأشياء كلها ظواهر إجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع وجود الجماعة فى تطورها وتتأثر كالجماعة بمختلف المؤثرات كالبيئة والأقليم والوضع الجغرافى .

وفى كتاب من تأليف « روم لاندو » بالإنجليزية أثبت حديثا أجراه مع رافع علم العلمانية فى مصر وفى هذا الحديث يعود الدكتور

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ص ٢٤ وانظر ص ١١٤ من صراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية — للندوى .

طه ليؤكد أن الإسلام لا يتفق مع العلم وأن شيوخ الأزهر يكذبون إذا ما قالوا غير ذلك وأن المسلمين فى مصر بين مراء فى عقيدة الإسلام وآخر يتخذ العقيدة مجرد تقليد ، وأن الإسلام قد يمكن أن يكون فى المستقبل دينا روحيا بشرط أن تتناوله يد التجديد ثم يقول :

ان الدين عند الأزهريين لا يزيد على أنه حرفة يحترفونها لاقتناص المال(١) .

---

(١) راجع ص ٣٠٠ – ٣٠١ محاكمة فكر طه حسين أنور الجندى ، دار الاعتصام .

دعوة الدكتور طه حسين فى ميزان النقد

إن دعوة الدكتور طه حسين هذه بادية البطلان ، لا يقبلها إنسان ذو عقل سليم كيف يدعو قومه للتفانى فى الغرب ؟ وكيف نسى الدكتور طه حسين أن لكل أمة ثقافة تميزها عن غيرها وتحفظ ماهيتها وتحدد شخصيتها وتبرز كيانها وتبين معالمها وطريقة حياتها وتفكيرها .

وإذ كانت الجماعات البشرية فى الدول والحكومات والجيوش فى ميادين القتال والفرق الرياضية فى الساحات ، تميز نفسها بمختلف الشارات ، فتتخذ الأعلام والأناشيد وأنماط الأزياء والعلامات والأشمرة ، تفعل كل ذلك لتميز نفسها من غـيرها فلا تضل فى الزحام ، ولا تذوب عند الاختلاط ، ولا تنحل رابطتها عند المصادمة والنزال .

أقول إذا كانت الجماعات تفعل ذلك لتميز نفسها فإن الدول أولى أن تفعل هذا بالنسبة لثقافاتها لأنها طريق حياتها ، ومن هنا ندرك لماذا كانت الأمم - فى كل مراحل التاريخ - تدافع عن ثقافتها وذاتيتها أن تنصهر أو تذوب فى ثقافات أمم أخرى .

إن الثقافة - فى حقيقتها - هى الصورة الحية الأمة ، فهى التى تحدد ملامح شخصيتها وقوام وجودها ، وهى التى تضبط سيرها فى الحياة وتحدد إتجاهها فى الوجود . إنها عقيدتها التى تؤمن بها ، ومبادئها التى تحرص عليها . ونظمها التى تعمل على إلتزامها ، وتراثها الذى تخشى عليه الضياع والإندثار ، وفكرها الذى تود له الذيوع والانتشار .

إن لكل أمة ثقافتها ومثلها العليا وخصائصها الذاتية ، التى تشكل طابعها ومزاجها ونفسيتها وقد تلتقى فى جزئيات ذلك مع أمم أخرى وقد تختلف ولكنها فى مجموع عناصرها تمثل نموذجاً يرسم شخصيتها العامة(١) .

فكيف غاب هذا كله عن فكر الدكتور طه حسين وهو مخطط لمستقبل الثقافة فى مصر ؟ أو أنه كان على معرفة بهذا كله ولكنه كان وفيا لثقافة أساتذته من الغرب فدعا إلى أن نأخذ كل شيء من أوربا من ثقافة أوربا ، ومن حضارة أوربا ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب على حد تعبيره .

ولو أن الدكتور طه حسين دعا أبناء أمته ليأخذوا من ثقافة الغرب ومن علمه ومن حضارته ما يتناسب مع تعاليم دينهم وتقاليدهم ويأخذوا من علمه التطبيقى ومن التكنولوجيا الغربية ما يمكن لهم فى الأرض ويزيدهم قوة لكان ذلك منطقيا ومعقولا ، بل ومقبولا أيضا فالأمة الإسلامية فى حاجة إلى أن تقف على سر الاختراعات الحديثة وكيفية صنع القنابل الذرية وتسيير سفن الفضاء وما إلى ذلك حتى تعيد صنع حضارتها من جديد .

فكان على الدكتور طه حسين وهو رائد الأدب كما يقولون - أن يحث قومه ليأخذوا هذا الجانب الذى لا يمس عقائدهم ولا يؤثر على

---

(١) ص ١٧٦ إطار إسلامى للفكر المعاصر ، أنور الجندى - المكتب الإسلامى طبعة أولى سنة ١٩٨٠ وانظر ص ١٢ لمحات فى الثقافة الإسلامية - عمر عودة الخطيب ، طبع بيروت .

تفكيرهم الثقافى الإسلامى ، بل وكان عليه أن يحذر قومه من الاندفاع الأعمى وراء ثقافة الغرب حتى لا يأخذوا ما يضر بهم وحتى لا تذوب ثقافتهم فى ثقافة غيرهم .

أقول لم يفعل الدكتور طه حسين شيئاً من هذا بل على العكس من ذلك أخذ يدعو أبناء الأمة إلى أن يأخذوا كل ما عند الغرب من خير وشر معا .

ولذلك يكفى أن نرد على الدكتور طه حسين بقول الفيلسوف الشاعر محمد اقبال الذى اكتوى بنار التعليم الغربى شخصيا وخاض فى دراسته فأبدى حقيقة فى أسلوب عميق إذ يقول عن ثقافة الغرب :

(إياك أن تكون آمنا من العلم الذى تدرسه ، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها) .

ويعبر عما تحدثه الثقافة فى التحويل والإنقلاب من الشىء إلى نقيضه فيقول :

(إن التعليم هو الحامض الذى يذيب شخصية الكائن الحى ، ثم يكونها كما يشاء . إن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيراً من أى مادة كيميائية هو الذى يستطيع أن يحول جيلا شامخا إلى كومة تراب .

إنه يرى التعليم الغربى مؤامرة على الدين والخلق إذ يقول :

إن نظام التعليم الغربى إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة(١) .

---

(١) ص ١٦٩ صراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية — الندوى .

ذلكم أن التعليم الغربى والثقافة الأوربية تقوم على الإلحاد فى شتى صورها، وتتخذ من المادة والطبيعة آلهة من دون الله الواحد القهار وقد تحدثنا عن ذلك سابقا فلا حاجة لنا إلى إعادته مرة أخرى.

ومن المعروف أن للثقافة الغربية آثاراً خطيرة على حياة أمة الإسلام وقد لاحظ «جب» أن النشاط التعليمى والثقافة عن طريق المدارس العصرية والصحافة قد ترك فى المسلمين – من غير وعى منهم – أثراً جعلهم يبدون فى مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد، ثم يعقب على ذلك بقوله:

(وذلك خاصة هو اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامى على حضارته من آثار)(١)

فهل هذا هو ما كان يهدف إليه الدكتور طه حسين من دعوته يا ترى؟!!

إن أمة الإسلام لا يجوز لها أن تقف فى مؤخر الركب، وأن تعيش على هامش الأمم، وترضى من القيادة والتوجيه والابتكار والإبداع – بالتقليد والمحاكاة، إن موقفها الصحيح هو موقف الحر الكريم، القوى الإرادة، المستقل التفكير، الذى يختار من الحضارات ما يلائمه ويحفظ له شخصيته وإمتيازه، وينبذ ما لا يلائمه ويذيب شخصيته ويفقده إمتيازه (ومن تشبه بقوم فهو منهم)(٢):

إنها أمة ذات رسالة عالمية متكاملة، تخضع حضارتها وثقافتها

---

(١) ص ٢٠٤ ج ٢ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين
(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.

وألوان نشاطها البشرى لعقيدتها ، لا ليمتد نفوذها وتقوى سيطرتها على الناس ولكن لتسود هذه العقيدة وتسيطر فيسود معها أتباعها ويسيطرون .

فالقول بأننا نأخذ كل ماعند أوربا مردود وإنما نأخذ وندع ، ونبنى ونبتكر تحت ظلال عقيدتنا الخالدة .

رابعا : سيطرة القوانين الوضعية :

وكان من الثمار المرة ومن آثار الدعوة إلى العلمانية ظهور قوانين وضعية تحكم بها المحاكم المدنية ، وهى قوانين تنتظم معظم شئون الحياة والعلاقات المدنية والتجارية والجنائية والإدارية والدولة .

أما الشريعة الإسلامية التى حكمت ديار الإسلام ثلاثة عشر قرنا فقد زحزحت عن مكانها وحصرت فى ركن ضيق تنظم وتقضى فيه فى بعض بلاد المسلمين وهو ما يتعلق بشؤون الأسرة أو ما يسمى « بالأحوال الشخصية » التى تنظر فيها المحاكم الشرعية وحتى هذا الركن الضيق أو الجانب اليسير من حياة الأمة لم يسلم من تدخـــل يد الأهواء بين الحين والحين .

وقد وصفت القوانين الحديثة المستوردة من فرنسا وغيرها بأنها عصرية وإنسانية ومتطورة على حين غمزت الشريعة وأحكامها بأنها جامدة أو رجعية أو غير قابلة للتطبيق فى العصر الحاضر ، بل ربما اتهمت - تلميحا أو تصريحا - بأن فى أحكامها قسوة ووحشية !!

وترتب على اقرار القوانين الوضعية الأجنبية الأصل مخالفة الإسلام دين الأمة ودين الدولة كما نصت معظم دساتير البلاد العربية والاسلامية - مخالفة ظاهرة باحلال المحرمات أو اقرار المنكرات ، أو إهمال الواجبات ، أو إسقاط العقوبات ، مع أمر القرآن الصريح بالحكم بما أنزل الله ، ورمية الكفر والظلم والفسق كل من لم يحكم بما أنزل الله .

أجل رأينا القوانين الوضعية تعطل العقوبات والحدود الشرعية المنصوص عليها فى الكتاب والسنة جميعا لأنها لا تليق بالعصر - فى

زعم دعاة العلمانية - وتقر بالربا وهو من الموبقات السبع في الاسلام ، ولا تقترفه أمة إلا أذنت بحرب من الله ورسوله .

ورأيناها تقر شرب الخمر وصنعها واستيرادها والإتجار فيها وأخذ الضرائب عليها ، ولا ترى في ذلك جريمة تستحق العقوبة والخمر هي - في الإسلام - أم الخبائث ومفتاح الشرور .

ورأيناها تقر الزنى ما دام وقوعه بتراضي الطرفين « الزاني والزانية » ولا ترى في الزنى جريمة إلا في حالة الاغتصاب والاكراه ، أو في حالة الخيانة الزوجية إذا رفع الزوج دعوى بذلك على زوجته .

وإذا كان الزنى نفسه ليس جريمة يعاقب عليها القانون الوضعي فأولى ألا يعاقب على مقدمات الزنى من العري والتهتك والخلاعة والمجون والتحريض على الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

هذا مع أن المفروض أن تكون القوانين معبرة عن عقائد الأمة وأخلاقها وتقاليدها ، حامية لقيمها وآدابها وتراثها عنوان المميزه ولكن العيب الأول في هذه القوانين أنها مستوردة من أمة غير أمتنا ، لها عقيدة غير عقيدتنا ، وقيم غير قيمنا ، وأخلاق غير أخلاقنا ، وتقاليد غير تقاليدنا(١) .

ومن أجل ذلك فهي لا تراعي طبيعة ديننا وفطرة أمتنا ، وتعاليم قرآننا وهدى نبينا ، طالما لا تخضع لمعايير دينية وإنما تخضع لمعايير بشرية . يجعل البشر - عندما انحرفوا عن الله - المصلحة أساسا لكل معيار .

---

(١) ص ٦٩ - ٧٠ الحلول المستوردة - د . يوسف القرضاوي .

ولكن المصلحة ليست ذات وحدة قياسية موضوعية ثابتة ، فقد يختلف فيها إثنان خرجا من صلب واحد واستقرا فى رحم واحد ، وعاشا فى بيت واحد ، فكيف تصلح هذه المصلحة معيارا وتكون مقياسا يرضى الشرق والغرب معا . ؟ أو يرضى الناس جميعا ؟

ولذلك فقد أصاب الفيلسوف المسلم محمد أسد ـ كبد الحقيقة عندما قال (إنه فى الدولة العلمانية الحديثة لا يوجد مفهوم ثابت يمكن به التمييز بين الخير والشر والعدل والظلم .

إن المقياس الوحيد فى مثل هذه الدولة هو « مصلحة الأمة » . وفى حالة عدم وجود ميزان ثابت للقيم الخلقية فإن الأفراد ستصبح لديهم وجهات نظر متباينة كل التباين حول ما يخدم مصالح الأمة على أحسن وجه .

فبينما قد يرى الرأسمالى بإخلاص أن الحضارة البشرية مهددة بالزوال إذا حلت الاشتراكية محل الحرية الاقتصادية ، يرى الاشتراكى بإخلاص لا يقل عن إخلاص زميله ، أنه لا يوجد سوى وسيلة واحدة لصيانة الحضارة البشرية ، هى الغاء النظام الرأسمالى واحلال النظام الاشتراكى محله.

وتكون النتيجة ما نراه اليوم من اضطراب وبلبله يهددان بالخطر العلاقات بين الدول والشعوب ، ويستحيل على أية أمة أن تعرف طعم السعادة ما لم تكن موحدة من الداخل . ويستحيل على أية أمة أن تتخد من الداخل ما لم تصل إلى نوع من الإتفاق على تحديد واضح لما هو عدل وظلم فى شئون الناس والحياة ، ويستحيل الوصول إلى مثل هذا الإتفاق بالتالى ما لم تتعارف الأمة على إلتزامات خلقيه منبثقة من قانون أخلاقى دائم مطلق .

ومن الواضح أن الدين ـ والدين وحده ـ هو القادر على أن يقدم لنا هذا القانون المطلوب ، وبهذا القانون يمكن أن يوجد أساس الإتفاق داخل الأمة أو المجتمع على الإلتزامات الخلقية التي يخضع لها كافة الأفراد مختارين (١) .

(١) ص ٢٢ وما بعدها بتصرف منهاج الحكم في الإسلام . محمد أسد ترجمة منصور محمد ماضي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت طبعة سادسة سنة ١٩٨٣ .

أهداف الدعاة العلمانية

إن هدف الأوروبيين وعملائهم من الدعوة إلى العلمانية والإلحاح عليها والإستماتة في علمنة الحياة في العالم الإسلامي - هو أن يصبح هذا العالم تابعا للغرب، يسير في دائرة نفوذه، ويتحرك في ركابه ويدور في محوره ويصبح بقرة حلوبا يأخذ منها الغرب كل شيء ولا يترك لصاحبها شيئا.

فالغرب له مصالح إقتصادية عديدة واستثمارات مالية كبيرة في البلاد الاسلامية في آسيا وأفريقيا، ومن شأن قبول هذه البلاد العلمانية أن يسهل للغرب طريق الحركة في سبيل الاستغلال الاقتصادي، سواء أكان من مصادر الثروة أم من دائرة الطاقة البشرية.

وكتاب: «الاسلام قوة الغد العالمية» لبول شمتز (سنة ١٩٣٦)(١). يوضح في غير لبس إمكانيات البلاد الاسلامية من:

١ - الثروة الأرضية والمعدنية وتكاملها.

٢ - وطاقة المسلمين في الخصوبة الجنسية.

٣ - ويسر الارتباط بينهم على الإيمان بالله.

وينذر أوربا بالفناء إن هي مكنت للمسلمين من التجمع واستخدام هذه القوى الثلاث، ونداء هذا الكتاب الموجه إلى الأوروبيين بالإنذار

---

(١) ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور محمد شامة الأستاذ بجامعة الأزهر.

يعبر عن عمـــق الرغبة الدينية فى الحيلولة دون تجمع المسلمين على الاسلام(١).

ولعل هذا هو السر فى تركيز الغرب الشديد على العالم الاسلامى ـ وحده ـ وحرصه القوى على علمنة حياته، بينما لا يفعل الشىء نفسه مثلا مع دولة كإسرائيل تلك التى لم تقم إلا على أساس خاص للدين والتى تتشبث بقوة بتعاليم التوراة وتعض عليها بالنواجذ وذلك فى كل مجال من مجالات العلم والدين والسياسة والإجتماع والاقتصاد بل وفى الحياة الفردية واليومية.

وفيما يلى مقتطفات لأحد الشيوعيين العرب سابقا حيث عاش مع الشيوعيين اليهود جنبا إلى جنب وعمل معهم مدة طويلة لندرك مدى سيطرة الدين على الحياة ومظاهرها فى إسرائيل إنه يقول:

فى قلب بلادنا تقوم دولة تحمل اسم نبى من التوراة، ليس لها دستور لأن الأحزاب الدينية تصر على أن التوراة هى الدستور. محرما فيها العمل يوم السبت، ولم تر فى ذلك أى إخلال باقتصادها وارتباطها بالبنوك العالمية التى تتعطل يوم الأحـــد. بل يحرصون على أن تكون الجلسة الأسبوعية للكنيست يوم الأحد. وحرم فيها على الجيش طبخ الطعام يوم السبت. تقول «يائيل دايان» فى مذكرات جندى:

أكلنا طعامنا مطهوا يوم السبت ٣ يونيو سنة ١٩٦٧ بتصريح خاص من الحاخام الأكبر.

---

(١) ص ٤٩ العلمانية والإســلام بين الفكر والتطبيق د. محمد البهى من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية ـ مطبعة الأزهر بدون تاريخ.

جيش إسرائيل الذى يوشك أن يمتلك القنبلة الذرية يمتنع عن طبخ الطعام يوم السبت ، وابن غوريون وشازار يسيران ميلا ونصف ميل على الأقدام فى جنازة تشرشل لأنها صادفت يوم السبت ويحرم فى التوراة ركوب وسائل النقل يوم السبت ، وعمر ابن جورين ٧٨ سنة وعمر شازار ٧٦ سنة فى وقت الجنازة ، ولم تجد الصحافة العالمية ولا الرأى العام الأنجليزى فى ذلك مدعاة للسخرية . لكنها تجد فى ذلك مدعاة للإعجاب .

وجميع طائرات شركة « العال » الإسرائيلية وسفن شركة « زيم » لا تقدم لحم الخنزير .

فى إسرائيل أحزاب دينية معترف بها ولها وزنها .

الزواج المدنى غير معترف به لحد أنهم رفضوا اعطاء الجنسية لحفيد إبن غوريون لأنه من أم غير يهودية .

اللغة العبرية لغة رسمية ، درسوا بها الصواريخ وإفساد الرادار وضرب الطائرات على المدرجات ، وألفوا بها أدبا ، نالوا به جائزة « نوبل العالمية » .

فى نفس الوقت — ولأجل أن تقوم إسرائيل — صدروا إلينا عملاء يجعلون لب كفاحهم فصل الدين عن الدولة ، ويصابون بالفالج عندما يسمعون أن الدستور سينص على أن دين الدولة هـــو الاسلام ، ويسودون الصحائف فى اضرار شهر رمضان على الانتاج ، ونحن أمة مستهلكة دون شك .

والذين ألغوا شعار الهجوم « الله أكبر » من الجيش ولم يعيدوه

إلا بعد النكسة بخمسة عشر شهرا ، بينما أول دبابة إسرائيلية دخلت سيناء مكتوب عليها آية من التوراة ، ونصاب بالذين تشغلهم صعوبة اللغة العربية ، ويبحثون عن حروف أخرى لها ، أو عزلها عن مجال العلم بزعم أنها لغة متخلفة ، والعبرية التي انقرضت منذ ألفي سنة أصبحت لغة العلم (١) .

وحتى نقف على سياسة إسرائيل التعليمية نقدم بعض المعلومات عن مؤلفات وتقارير خبراء التعليم في الشرق الأوسط .

يقول الدكتور « رودر مايثوز » والدكتور « متى عقراوى » في كتاب (التربية في الشرق العربي) :

إن أهم مايسترعى الأنظار في المدارس الإسرائيلية في فلسطين أن لغة الدراسة في كافة المواد هي العبرية فيما عدا اللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية ، والعناية شديدة في جميع مراحل التعليم بالدراسة الدينية وجعل التعليم الديني أساس الصهيونية وتقدمها ، وجاء في مقال : « التعليم العالي في إسرائيل » ما يلي :

إن سياسة التعليم العالي تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية والولاء لها بالإضافة إلى الرعاية لإسرائيل وكسب الأصدقاء (٢) .

يقول صاحب كتاب « من هنا نعلم » (٣) .

---

(١) ص ١٥٦ — ١٥٧ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية — للندوى .

(٢) ص ١٥٧ — ١٥٨ من المصدر المذكور .

(٣) الأستاذ محمد الغزالي ص ٤٩ — ٥٠ .

وهو يتحدث عن رفض اليهود تسمية دولتهم باسم الاتحاد اليهودى أو الجمهورية اليهودية أو الاشتراكية إلخ إلخ واصرارهم على تسميتها باسم إسرائيل . . يقول :

أجل لقد رفضوا هذه الأسماء ، وعادوا القهقرى إلى التاريخ القديم ينبشون فى ترابه وينقبون فى آثاره ، وطووا عشرات القرون ثم ظهروا بعد ميلاد عيسى بألفى عام ، ظهروا على الناس بإسم « إسرائيل » رمز تمسكهم بدينهم وتشبثهم بذكرياتهم واحترامهم لمقدساتهم .

واليهود الذين فعلوا ذلك هم أساطين المال والعلم ودهاقين السياسة والاقتصاد ، وفيهم من اشترك فى تفجير الذرة

ومن ساهم فى كثير من المخترعات ، ومع ذلك فما شعروا بخجل فى الانتماء لدينهم ، وفكروا فى التخلص من آصاره .

ذلك يحدث بين اليهود فى الوقت الذى تجد فيه مأفون كل بضاعته من العلم قشوراً قرأها ، أو لغة أجنبية أجادها ، أو تقاليد أفرنجية عرفها ، أو ملابس أوربية إرتداها ، ثم هو يتحدث عن الدين فيلوى لسانه بكلمات الرجعية والجمود .

فإذا تكون جيل من هؤلاء الحمقى يقف من الإسلام هذا الموقف الزرى فأى بلاء يصيب الإسلام منه ؟ .

أليس من العجائب التى تلدها الليالى السود أن الذين برزوا فى العلم المادى يؤمنون بأديانهم الباطلة . وأن الذين طالعوا أنباء مقتضبة عن هذا العلم يريدون أن يكفروا بالدين الحق ، أى بالإسلام الحنيف .

هذا ما تفعله إسرائيل وتحرص عليه وتعمل له .:. تتمسك بالدين

وتجعله أساس التعليم وأساس التربية بل والمسيطر على كل شئون حياتها. ولا نجد — من أبنائها — من يزعم بأن مبادىء الدين رجعية والتمسك بها تخلف وجمود، وتركها تقدم وحضارة ومدنية.

أما نحن المسلمين فما أكثر الذين يسيرون فى ركاب الغرب وما أكثر الذين خدعوا بثقافة الغرب ودعاوى الغرب التى تزعم - فيما تزعم — بأن الدين وراء تأخر المسلمين وفقر المسلمين وجهل المسلمين وضعف المسلمين.

ولذلك فلابد - كى ينهض المسلمون - من عزل دينهم عن كل شئون حياتهم وحصره فى المساجد والزوايا فقط، ولابد - لضمان التنفيذ - من وجود حكومة علمانية تعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

أليس من الظلم لشعوب الأمة الإسلامية أن تفرض عليهم القوانين الوضعية فرضاً وهم لها كارهون؟

أليس من الظلم بل ومن الإجرام أيضاً فى حق الشعوب الاسلامية أن تنحى القوانين الالهية لتحل مكانها القوانين البشرية.

أليس من الظلم فى حق الشعوب الاسلامية أن يفصل دينهم عن قيادة مجتمعاتهم، وأن تترك هذه المجتمعات نهبا لقوانين ما أنزل الله بها من سلطان؟ إن فصل الدين عن الدولة هو - على حد تعبير — مصطفى صبرى(١):

(١) شيخ الاسلام فى تركيا سابقا وصاحب كتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين - انظر ص ٢٨١ ج ٤ من هذا الكتاب المذكور - دار إحياء التراث العربى — بيروت.

مؤامرة بالدين للقضاء عليه . . وكما يقول :

(قد كان فى كل بدعة أحدثها العصريون المتفرنجون فى البلاد الاسلامية كيد للدين ومحاولة الخروج عليه ، لكن كيدهم فى فصله عن السياسة أدهى وأشد من كل كيد فى غيره ، فهو ثورة حكومية على دين الشعب) .

فى حين أن العادة أن تكون الثورات من الشعب على الحكومة — وشق عصا الطاعة منها أى الحكومة لأحكام الإسلام بل ارتداد عنه من الحكومة أولا ومن الأمة ثانياً — إن لم يكن بارتداد الداخلين فى حوزة تلك الحكومة باعتبارهم أفراداً فباعتبارهم جماعة ، وهو أقصر طريق إلى الكفر من ارتداد الأفراد بل إنه يتضمن ارتداد الأفراد أيضاً لقبولهم الطاعة لتلك الحكومة المرتدة ، التى ادعت الاستقلال لنفسها بعد أن كانت خاضعة لحكم الاسلام عليها(١) .

ومن العجب العجاب أن ينادى — بعد هذا — بعض أبنـــاء الأمة الإسلامية أن نأخذ عن الغرب كل ما عنده من خير وشر ، من صالح وطالح ، من نافع وضار ، ما يحب منه وما يكره ، وما يحمد وما يعاب ، وأن نفصل — كما فصل الغرب — الدين عن الدولة ، وأن ندرك أن السياسة شىء والدين شىء آخر ، بينما نجد بعض الغربيين ينصح المسلمين فى لحظة صدق مع النفس — ألا يأخذوا من الغرب إلا ما يمنحهم القوة ويمكن لهم فى الأرض ، ثم يبتعدوا بعد ذلك عن كل مفاسد الغرب وآثامه .

يقول العلامة « شارل ميرمر » فى مؤتمر المستشرقين عام ١٨٩٤ م آمراً المسلمين باتباع دينهم :

---

(١) ص ٢٨٢ ج ٤ موقف العقل والعلم والعالم — مصطفى صبرى .

اسمحوا لى أن أنصح لجميع المسلمين أن لا يطلبوا مستقبلهم فى تقليد النظامات الأوربية والمسيحية ، فاطرحوا هذه النظامات ، وأمعنوا النظر فى مشهد ما نحن فيه (نحن الأوربيين) من الفوضى الخداعة واطلبوا من دينكم الذى هو أسمح دين وأكثر مساواة مفتاح مستقبلكم ولا تفضلوا أن تستعيروا منا إلا الاكتشافات العلمية الخاصة بإنماء سعادتكم المحلية (١) .

فهل يسمع المسلمون هذه النصيحة الخالصة ، وهل يأخذ المسلمون بها ، وهل يترك المسلمون هذه النظم العلمانية الغربية ؟

وهل يخط المسلمون من دينهم الربانى طريق مستقبلهم وسبل سعادتهم ؟ وهل يخلع المسلمون ثوب العلمانية بعد أن تمزق وهوى نسيجه فى مستنقع الضياع ؟

وهل يدرك المسلمون أن الدعوة إلى العلمانية فى عالم الإسلام — على حد تعبير الدكتور محمد رضوان — تكشف عن الجهل بحقائق الاسلام وتاريخه الفكرى الناصع وقدرته على استيعاب كل تقدم علمى وصناعى وفكرى ، بل وحثه أتباعه على إحراز هذا التقدم ؟

فقد كان الاسلام قادراً بمرونته وقدرته الكامنة على اعطاء الحياة المتجددة قوتها (٢) .

ولذلك فإن تطبيق العلمانية فى البلاد الغربية أسهل منه فى البلاد الاسلامية .

---

(١) ص ٣١٨ إطار اسلامى للفكر المعاصر — أنور الجندى المكتب الاسلامى طبعة أولى سنة ١٩٨٠ .

(٢) ص ٣٦ الايدلوجيات والفلسفات المعاصرة — أنور الجندى .

ذلك أن المسيحية لم تشتمل على تشريعات واسعة تؤثر على الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للفرد والجماعة .

أما الدين الاسلامى فبالإضافة إلى احتوائه على العقائد والعبادات والأخلاق ، فقـــد جاء بنظام شامل يمس حياة الإنسان فى شتى نواحيها من المهد إلى اللحد ، وهو نظام يتفق مع صميم طبيعة الحياة الإنسانية (١) .

إن النظام السياسى الذى ينبثق عن القرآن والسنة ليس وهما أو خيالا ، بل إنه راسخ الدعائم واضح المعالم ، وهو يرسم لنا حدودا جلية لمنهاج سياسى صالح للنفاذ والتطبيق فى كل الأزمنة وبالنسبة لكل ظروف الحياة البشرية .

ولما كانت غاية هذا المنهاج السياسى أن يكون صالحا للتطبيق فى كل الأزمنة وبالنسبة لكل الظروف ، فقد جاءت الأحكام المتعلقة به فى هيئة مبادىء عامة فقط ولم تتعرض للفروع .

إن حاجات الإنسان السياسية حاجات مرتبطة بالزمن متغيرة مع تغيره ، وليس هناك أنظمة أو احكام شرعية معينة مهما تكن صارمة يمكن لها أن تحد من فعالية هذا القانون الطبيعى الغلاب . قانون التغيير والتطور .

ولهذا فإن الشريعة الاسلامية لم تحاول المستحيل ، ولما كانت الشريعة

---

(١) دعوة إلى الاسلام ـــ محمد الفضالى ـــ نقلا عن ص ١٥٣ ـــ الاسلام والمذاهب الهدامة ـــ أنور الجندى .

ناموسا إلهيا ، فقد كان طبيعيا أن تضع فى اعتبارها سلفا هذا التطور التاريخى .

ولهذا فهى تقدم المؤمن عددا محدودا جدا من المبادىء السياسية وتترك بعد ذلك المجال رحيبا لصياغة الدساتير وتنظيم الحكومة ومايتصل بذلك من سن القوانين التى تتطلبها الظروف المتغيرة ، لاجتهاد المسلمين فى كل عصر .

ولذا فانه لايوجد شكل واحد للدولة الاسلامية ، بل أن هناك أشكالا كثيرة ، وأن على المسلمين فى كل زمن أن يكتشفوا الشكل الذى يلائم ويحقق حاجاتهم ، شريطة أن يكون الشكل والنظام اللذان يقع عليهما الاختيار متفقين تماما مع الاحكام الشرعية الظاهرة المتعلقة بتنظيم حياة المجتمع (١) .

وليس فى الاسلام حكومة إلهية من مجموعة من الناس أيا كان إخلاصهم فى العبادة لله ، وأيا كانت منزلتهم منه ، إذا أخذت بتعاليم القرآن واتبعت مبادئه فى سياستها . فهى حكومة إنسانية تخضع للخطأ والصواب .

ولذا ـ عند النزاع ـ فى الأمر مع القائمين على شان الحكومة الاسلامية فالقرآن الكريم يطالب العودة بالنزاع بين الطرفين ـ طرف

---

(١) ص ٥٤ — ٥٥ منهاج الاسلام فى الحكم ـ محمد أسد : ترجمة منصور محمد ماضى دار العلم للملايين طبعة سادسة مارس ١٩٨٣ م

الحاكمين وطرف المحكومين - إلى كتاب الله وسنة رسوله التي تعبر عنه توضيحا أو تطبيقا بقول الله تعالى :

(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات ، إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) (٢) .

فهنا يأمر القرآن المؤمنين جميعا من أولى الامر وغيرهم بأربعة مبادىء :

أولا : بأداء الامانات إلى أهلها ، وفي مقدمتها أداء صاحب الولايه العامة أمانة ولايته لمن يولى عليهم ، وبالاخص العمل طبقا لما جاء في كتاب الله تعالى .

ثانيا : بمباشرة العدل في الحكم والقضاء بين الاطراف المعنية في الخصومة .

ثالثا : بالطاعة لما لله من قوانين ومبادىء في صورة أوامر أونواه ، أو وصايا . . وطبقا لما جاء في كتابه وفي سنة رسوله قولا وعملا .

رابعا : بالاحتكام إلى ما لله في القرآن وسنة الرسول من مبادىء وأحكام وتطبيق عملي ، عند التنازع بينهم وبين أولى الأمر منهم .

فطالب القرآن الكريم رجوع المؤمنين جميعاً إلى ما لله في الكتاب

---

(٢) سورة النساء آية (٥٨ - ٥٩) .

والسنة ما بين ولى الأمر ، ومن عداه فى الجماعة - يوضح من غير إبهام : أن أصحاب الحكم والولاية العامة فى الجماعة المؤمنة لا يرتفع مستواهم إلى « العصمة » عن الخطأ ، وإنما يجوز عليهم الخطأ كما يجوز عليهم الصواب فى الشؤون الدنيوية : لأن تبليغ الوحى معصوم عن الخطأ(١) .

إن الإسلام بناء كامل له أفقه الحضارى ، وله جهازه الثقافى ، وقانونه التشريعى ، ومجتمعاته التى تقوم على الأخلاق ، ومدارسه التى ترتكز على الروح والآداب ، ومثالياته التى تبنى عليها الحياة وتصعيده لكل عمل من أعمال الدنيا إلى الله .

إن الإسلام دين ورث النبوات والرسالات كافة وارتضاه الله أفقا لجامعة الرسل ، وعنوانا لكل كتاب مقدس . فأى تنازل منه فى ميادينه التشريعية والخلقية والتعبدية - هو إهدار لكل الأديان وتفريط فى أمانة الله ومساندة للعلمانية بجميع صورها .

إن الإسلام لا يعرف الجمود والتزمت والإنفصال داخل الأسوار ، إنه لدين يمشى بالحياة ويمتد مع الناس إلى الخير ولا ينتكص : إنه رسالة الدنيا كما هو رسالة الآخرى - رسالة للعلم والقوة وكل ما يعينه على أن يكون القوة الأولى .

وعلى هذا الضوء يجب أن نحدد موقفنا من الحضارة القائمة ، فنأخذ منها مسببات القوة والبأس الشديد والعلم العريض ونعرض عن تحللها ومفاسدها وعداوتها وجاهليتها الشهوانية الملحدة ، وهذا ما نصحنا به « شال ميرمر » فى لحظة صدق مع النفس .

(١) ص ٣١، ٣٢ الدكتور محمد البهى - العلمانية والاسلام بين الفكر والتطبيق مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية - مطبعة الازهر بدون تاريخ .

إن من مقومات نهضتنا أن ننتفع بالمعارف العالمية التى كسبها الإنسان فى تطوره التاريخى وأن تضم إلى قوتنا الذاتية تلك القوى التى تعمل فى حقل الحضارات المعاصرة ، وأن نقتبس من نظمها كل نافع لنا وكل معين على نهضتنا .

علينا أن ننتفع ببرامجها فى الاعداد والتنظيم والإنتاج ، وأساليبها فى الدرس والتحصيل والابتكار ، وأن نأخذ من قوانينها العامة المنتقاة كل ما لا يتعارض مع روح الإسلام .

كما يجب أن ندرك أننا فى عصر صناعى جبار ، ولا حياة لأمة لا تبنى نهضتها على بأس الحديد ، وطاقات المعادن وتفجرات خواصها ، ولا وجود لشعب ينطوى على نفسه داخل القماقم .

إننا لا نتشبه بأوربا ولا نذوب فى حضارتها ، ولكن لا نجحد صولة ما وصلت إليه من قوى ولا عظمة ما ابتكرت من معارف واختراعات(١) مما يحتم علينا أن نأخذ كل نافع وأن نترك كل ضار .

نأخذ كل ما من شأنه أن يجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . فأخذ كل ما يمكن لنا من إعادة حضارة سلف هذه الأمة الصالح كى نبطل دعاوى المغرضين ومزاعم المتفرنجين ، تلك التى تستهدف تعاليم ديننا الحنيف ونظم شريعتنا السمحة الخالدة .

وكى ترتفع راية الإسلام فى الخافقين مصداقاً لقوله تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره

---

(١) ص ٣٨ ، ٣٩ دولة القرآن ـ طه عبد الباقى سرور ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ الفجالة القاهرة بتصرف .

المشركون(١) .

علينا أن نحتفظ بثقافتنا الذاتية وأن نأخذ الجانب العلمى البحت فى العلوم التجريبية وتطبيقاتها العلمية والعملية ومنجزاتها الآلية والإنتاجية .

فهذا الجانب يفيد منه المسلم وتفيد الأمة الإسلامية وتبنى عليه وتبتكر وتبدع ، لأنه ميراث مشترك بين البشرية كلها ، أسهمت فيه كل أمة بما قدمه علماؤها عصراً بعد عصر ، وجيلا بعد جيل ، فليس ملكاً لأحد وفى هذا يقول الأستاذ « محمد أسد فى كتابه (الطريق إلى مكة)(٢) :

(إن اكتساب الأفكار والأساليب العلمية ليس فى الحق تقليداً . وبالتأكيد ليس فى حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن أن يوجد . إن العلم لاغربى ولاشرقى ، ذلك أن الاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات فى سلسلة لا نهاية لها من الجهد العقلى الذى يضم الجنس البشرى بكامله) .

إن كل عالم يبنى على الأسس التى يقدمها له أسلافه ، سواء كانوا من بنى أمته أو من أبناء أمة غيرها .

وعملية البناء والاصلاح والتحسين هذه تستمر وتستمر ، من إنسان إلى إنسان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن مدنية إلى مدنية ، بحيث إن ما يحققه عصر معين أو مدنية معينة من أعمال علمية جليلة ،

(١) الاسراء : آية ٩ .
(٢) ص ٢٧٤ — ٢٧٦ .

لا يمكن مطلقاً أن يقال : إنها تخص أو تعود إلى ذلك العصر أو إلى تلك المدنية .

فقد يحدث فى مختلف الأزمنة والعهود أن تسهم أمة ما ، أمضى عزيمة وأشد همة من غيرها - بنصيب أكبر فى صندوق المعرفة ، ولكن الجميع مع الزمن يشتركون ، وبصورة شرعية صحيحة فى هذه العملية .

لقد جاء حين كانت مدنية المسلمين أقوى وأمضى من مدنية أوربا فنقلت إلى اوربا كثيرا من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية ، وأكثر من هذا مبادىء تلك الطريقة العلمية نفسها التى يرتكز إليها العلم الحديث ، والمدنية الحديثة .

ومع ذلك فإن اكتشافات جابر بن حيان الكيماوية لم تجعل من الكيمياء علماً عربياً ، كذلك لا يمكن أن يقال : إن الجبر وعلم المثلثات هما علمان إسلاميان ، مع أن الأول منهما بسطه الخوارزمى ، والثانى البتانى ، وكلاهما كانا مسلمين تماماً .

كما لا يستطيع أحد أن يتكلم عن نظرية الجاذبية « الانجليزية » مع أن صاحبها كان إنكليزياً . كل هذه الأعمال العلمية العظيمة هى ملك مشترك بين الجنس البشرى كله .

وإذا فإن المسلمين إذا تبنوا - كما هو من واجبهم أن يفعلوا - الطرق والوسائل الحديثة فى العلوم والفنون الصناعية فإنهم بذلك لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التى تجعل الناس يفيدون من خبرات

غيرهم ، ولكنهم إذا تبنوا — وهم فى غير حاجة إلى أن تفعلوا ذلك — أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً ، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم فى هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى بما قدمته لهم ثقافتهم نفسها وبما يدلهم عليه دينهم نفسه .

ولو أن المسلمين احتفظوا برباطة جأشهم وارتضوا الرقى وسيلة لا غاية فى ذاتها إذن لما استطاعوا أن يحتفظوا بحريتهم الباطنة فحسب ، بل ربما استطاعوا أيضاً أن يعطوا إنسان الغرب طلاوة الحياة الضائع .

هل نحن فى حاجة إلى العلمانية ؟

مما لاشك فيه أن الله تبارك وتعالى قد اختتم سلسلة الأديان السماوية برسالة الإسلام الخالدة التى ضمت بين أجنحتها الأسس والقوانين والتشريعات التى تحقق سعادة البشرية (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) (١) (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٢) .

ولذلك فقد رضى الله لنا الإسلام دينا (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)(٣) .

وأمرنا جل جلاله ألا نحيد عن هذا الدين كطريق عبادة ومنهج حياة وسلوك ولا نتبع غيره حتى لا نضل الطريق ، بل لا بد من التمسك به والسير على هداه (وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

والرسول ﷺ يقول (أتيتكم بالحجة البيضاء ليلها كنهارها وتركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنة رسوله) ولا يأمرنا الله جل جلاله بالتمسك بهذا الدين إلا إذا كان صالحا لكل زمان ومكان شاملا لمقومات الحياة الكريمة السعيدة ، جامعا بين المادة والروح بين حياة الإنسان الدنيوية وحياته الأخروية .

---

(١) سورة الإسراء آية ٩ .
(٢) سورة النحل آية ٨٩ .
(٣) سورة المائدة آية ٣ .

حتى إننا نلمح فى سهولة ويسر هذه الروابط المتينة التى لا تنفصم أبداً بين الأمور التعبدية والسلوك الانسانى فكل مافرضه الإسلام من عبادات هو فى الواقع تغذية للانسان وتربية لنفسه وروحه جميعاً لتكون ثمرة أعماله طيبه وليكون ذلك ثمنا يقدمه لفوزه برضا الله والجنة ولينال الجزاء الأوفى فى الآخرة .

فليست نظرة الإسلام أن أعطوا ما لقيصر لقيصر وأعطوا مالله لله كما دعت المسيحية إلى ذلك . وإنما نظرة الإسلام أن نأخذ الحياة جميعا ، وأن يرتبط الإيمان والعبادة بالعمل والتطبيق والخلق والجهاد المستمر والابداع الدائم فى مشاكل الحياة كلها حسب تطور الزمن واختلاف البيئات

فالرهبنة والتقشف والزهد فى الحياة والعبادة ليل نهار والتحقير من شأن الدنيا والدعوة إلى الكسل والخمول والتواكل وعدم السعى وعدم الحرص على النشاط المادى المشروع ، ليس كل ذلك مما يقره الإسلام فى شىء .

إن الإسلام ليس عقيدة فحسب ، ولكنه عقيدة ونظام ، وليس الإسلام دينا فقط ولكنه دين ودولة . (فالنظام الاسلامى أشبه ما يكون بالآلة التى تنتج الكهرباء والعقيدة الإسلامية هى النور الذى تعمل الآلة لأنتاجه ، فإذا عطلت الآلة انقطع النور وانتهى الاسلام)(١) .

ومن هنا لابد من أخذ الاسلام كله كعقيدة ونظام ، كشريعة

(١) ص ٥٩ الاسلام وأوضاعنا السياسية ـ عبد القادر عودة .

وسياسة كدين ودولة ـ كى تتحقق الهداية والتمكين والسعادة التى وعدنا الله بها .

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهنم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)(١) .

والذين يدركون حقيقة الاسلام ويعيشون تجربته يعرفون تماما أنه نسيج وحده وأن قطع أى خيط من خيوطه المحبوكة باعجاز رائع كفيل بتمزيق هذه الوحدة المتجانسة .

إن الانسان الذى يؤمن بالاسلام ذلك الايمان المبتور المشوه . فيأخذ بعضه ويترك بعضه سرعان مايجد أمامه هوة سحيقة تمنعه من الاندماج والتعامل الصحيح مع هذا الدين .

إن المنهج الاسلامى وحدة متكاملة لايمكن الفصل بين جزئياتها المتراصة والذين يقسمون الاسلام إلى قطاعات أربع تشمل العقائد والعبادات وآداب السلوك والتشريعات ، إنما ذلك فقط لغرض التوضيح والتنسيق ، فهم يدركون أن هذه القطاعات جميعا متداخلة فيما بينها تداخلا عضويا حميما ، كل منها مؤثرة فى الأخرى ومتأثرة بها ، لاتنفصل أحداها عن الأخرى . ولا تنزوى هنالك فى الظلام كى تتيح

---

(١) سورة النور آية ٥٥ .

للإنسان حرية العمل فى القطاعات الأخرى كما يشاء وحسبما يملى عليه هواه .

إن العبادات ذاتها كعلائق مجردة بين الفرد وخالقه إنما تعنى — فى الاسلام — ذلك المولد الحيوى الدائم الذى يبعث فى كيان الانسان المسلم الطاقة المتجددة التى تدفعه إلى مزيد من النشاط الحضارى الخلاق ويلزمه العمل بكل أمانة وتجرد واخلاص .

فالشعور بالمسئولية ويقظة الضمير والإحساس الحاد بالزمن إنما هى أهداف أساسية لهذه الصلات اليومية بين الانسان المسلم وربه جل جلاله — أهداف تضفى على الحضارات الدينية طابعا خاصا من الحيوية والتجدد والاستمرار .

وقد وصف القرآن الكريم المؤمنين بأنهم (يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) ووصف الأمة الاسلامية بقوله : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

إن العقيدة — فضلا من دورها الايجابى فى توجيه الطاقات البشرية نحو العمل والحركة الدائبة — فإنها تقف فى الوقت ذاته — سدا منيعا يصد الإنسان فردا وجماعة عن الانحراف عن الطريق المستقيم وتشد أنظاره دوما بالأفق الأعلى ، فيدخر عليه طاقاته ويحفظ سنيه المعدود على الأرض من الضياع .

وذلك هو المعنى الحضارى لمفهوم وحدة الاسلام ، ذلك الدين الذى يصبغ كل حركات الأفراد ويطبع أعمالهم بالطابع الإلهى . إنه ليصعد كل عمل من أعمال الدنيا إلى الله وبذلك يكون الاسلام رسالة عالمية

يحمل فكرة عالمية لخير الحياة كافة (١) .

إن الدين الذى اضطر مؤرخا مثل (جب) إلى أن يقول : عنه فى كتابه (مستقبل الاسلام) .

أنه ليس دينا بالمعنى المجرد الخاص الذى نفهمه اليوم من هذه الكلمة، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس دينى ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية (٢) .

فهل نحن فى حاجة بعد هذا كله إلى العلمانية ؟

هل نحن فى حاجة إلى هذا التصور العلمانى الناقص الذى جر الوبال على أوربا وأفسد عليها حياتها ؟

هل نحن فى حاجة إلى العلمانية إذا أخذنا بمنهج الاسلام فى التشريع وبمنهج الاسلام فى العبادات وبمنهج الاسلام فى الحكم وبمنهج الاسلام فى الأخلاق، وبمنهج الاسلام فى السلوك وبمنهج الاسلام فى الاقتصاد، وبمنهج الاسلام فى العلاقات بين الفرد والجماعة وبين الشعوب والدول؟ وخاصة وقد بين لنا الاسلام ورسول الاسلام كل شىء نحتاج إليه .

يقول إبن القيم وهو يتحدث عن رسالة الرسول ﷺ وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده .

(فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها . . . ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذى تحتاج إليه الأمة فى علومها وأعمالها عما جاء به.

---

(١) ص ٦٧ دولة القرآن ـ طه عبدالباقى سرور جـ١ طبعة ثانية .

(٢) أنظر ص ٦٢ ـ ٦٤ من تهافت العلمانية للدكتور عماد الدين خليل .

وقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى السماء إلا ذكر للأمة منه علما ، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلى وآداب الجماع والنوم والقيام . . . وجميع أحكام الحياة والموت . . . وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله .

وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم حتى كأنهم كانوا بينهم ، وعرفهم طريق الخير والشر دقيقها وجليلها مالم يعرفه نبي لأمته قبله . وعرفهم ﷺ من مكايد الحروب ولقاء العدو وطريق النصر والظفر مالو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبدا .

وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معاشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة(١) .

إن الذين ينادون بتنحية دين الإسلام وحضارة الإسلام عن حياتنا ويرفعون رايات العلمانية هم الذين لم يفقهوا مقاصد الإسلام وغايات شريعته . تلك التى جعلت مصلحة الأمة هى معيار الصواب والخطأ والنفع والضرر فى السياسة والدولة والمجتمع بل وجعلت المرجع الأول فى حسن الأمور وقبحها .

ومن ثم وتبعا لذلك رضا الله أو سخطه هو لجماعة المسلمين . . . فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن(٢) .

---

(١) ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ اعلام الموقعين عن رب العالمين ـ ابن القيم الجوزية ج ٤ سنة ١٩٨٠ مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) العلمانية أو نهضتنا الحديثة د. محمد عمارة ص ٦٧ دار الشروق طبعة أولى سنة ١٩٨٦ .

إن شريعة الاسلام ما جاءت إلا لتقيم - بين الناس - الحق والعدل فاذا تحقق ذلك أو على حد تعبير الامام ابن قيم الجوزية : فاذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العدل و أسفر صبحه بأى طريق فثم شرع الله ورضاه وأمره (١) .

إن الله جل جلاله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فجاء هذا الرسول الكريم - كما يقول - أبن القيم - يحمل خير الدنيا والآخرة ولم يحوج الله الناس لأحد سواه فكيف يظن أن شريعته الكاملة التى ما طرق العالم شريعة أكمل منها - ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها وقد قال الله تعالى .

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)(٣) .

أفبعد هذا كله نهرول كالعبد الآبق وراء القوانين الوضعية والتشريعات البشرية ونترك شرع الله المجيد وهدى رسوله العظيم وكأننا ماسمعنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(قد تركتكم على الحجة البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها بعدى إلا هالك ومن يبق منكم فسيرى أختلافا كثيراً فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة

---

(٢) ص ٣ ج ٣ أعلام الموقعين طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٣٧٦ .

الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ)(١) .

ولا شك أن شريعة الاسلام التى تركها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صالحة لكل زمان ومكان بل هى تصلح كل زمان ومكان .

ذلكم أن الاسلام ـ وهو من صنع بارىء هذا الكون ومنشىء نواميسه ، والعالم بما يجد فيه ويحدث وما يتطور — كان فى علمه هذا التطور التاريخى وما يترتب عليه من تطور إجتماعى وإقتصادى وفكرى عام ، وإنه لهذا وضع الخطوط الثابتة والمبادىء العامة والقواعد الشاملة التى لاتخرج أطوار الانسان فى النهاية عن حدودها ، وترك التطبيقات لتطور الزمان وبروز الحاجات فى حدود مبادئه العامة ، وقواعده الشاملة ، ولم يدل بتفصيلات جزئية مقيدة إلا فى المسائل التى لايتغير حكمها والتى تؤدى أغراضها كاملة فى كل بيئة والتى يريد الله تثبيتها فى الحياة البشرية ، لأنها ضمان للخصائص التى يرتضيها لهذه الحياة ، وإنه لهذا الشمول وهذه المرونة قد كفل لأحكامه التطبيقية النمو والتجدد على مر الزمان .

ولقد بذل فقهاء هذا الدين جهداً ضخما مشكوراً فى التطبيق والقياس والتفريع ، كفل لأحكام الاسلام أن تلبى حاجات المجتمع المتجددة فى كل الأزمنة التى ساد فيها حكم الاسلام وطبقت فيها شريعة الغراء .

ثم وقف هذا الجهد عندما تخلى المجتمع عن الاسلام بتخليه عن

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه عن العرباض بن سارية (١ / ٤٢) والترمذى (٥/ ٢٦٧٦) .

شريعته ومنذ أن غلب الاستعمار الصليبي على دار الاسلام .

ولم يكن من المنطق أو من المعقول والمقبول الآن - بعد أن تحررت بلاد المسلمين من هذا الاستعمار ، أن ندع ديننا الشامل الكامل في عزله تعبدية وننطلق إلى التشريع الفرنسي أو غيره نستمد منه القوانين ، أو إلى النظريات السياسية الغربية أو غيرها نستمد منها نظام الحكم ، أو إلى النظريات المادية تستمد منها نظام المجتمع (١) . متأثرين في هذا بأقوال أعداء أمة الاسلام بأن ديننا هو الذى جر علينا هذا التخلف والجمود والضعف .

ولذا فقد أصبحنا في زيل قافلة الحضارة ، فإذا أردنا التقدم والحضارة والمدنية ، فعلينا أن نفعل كما فعل الغرب وأن نبعد ديننا عن منهج حياتنا كما فعلت أوربا من قبل ، ولم يفطن دعاة العلمانية إلى ظروف الغرب وظروفنا وتقاليد الغرب وتقاليدنا .

(١) ص ١٧ العدالة الاجتماعية في الاسلام سيد قطب طبعة سادسة .

العلمانية بين الغرب والشرق

لم يكن عجبا أن تجد العلمانية مكانها فى الغرب نتيجة تسلط الكنيسة وتحالفها مع الظالمين على شعوب الغرب المختلفة ووقوفها فى وجه كل تفتح فكرى أو كشف علمى وتجاوزها ذلك الحجر على العقول إلى حجر أخطر على القلوب حين فرضت صكوك الغفران ، وقرارات الحرمان ، وراحت تتاجر بها وتتخذها وسيلة للكسب الحرام .

وغرقت أوربا فى دماء ضحايا الكنيسة حيث سقط المئات بل الألوف تحت مقاصل محاكم التفتيش ومشانقها غير من غيبوا فى غياهب السجون .

وإذا كانت سنة الله فى الكون أن لكل فعل رد فعل مساويا له فى القوة ومضاداً له فى الاتجاه ، فلقد وقع الصراع ، صراع العلم مع الكنيسة وانتهى باعلان العلمانية التى تعنى فصل الدين عن الدولة ، وتقلص سلطان الكنيسة داخل جدرانها (١) .

وفضلا عن أن ظروف أوربا التاريخية كانت تبرر انتشار العلمانية وفصل الدين عن الدولة ، فلقد كانت ظروف الديانة المسيحية بعدما أدخل عليها من تحريف كان اليهود وراء أكثره .

أقول . . كانت ظروف الديانة المسيحية تسمح بوجود علمانية إلى جانب الدين .

---

(١) انظر كتابنا : العلمانية وأثرها فى أوربا .

وحين أريد نقل العلمانية إلى الشرق الاسلامى غفل المسخرون عن علم أو عن جهل غفلوا عن هذه الظروف جميعا ، غفلوا عن أنه ليس فى ظروف الشرق الاسلامى ما يبرر فصل الدين عن الدولة ، لأن الديانة الاسلامية لا تسمح بذلك ، لأن الدولة فى فقه الإسلام قسم للدين لاقسيم ، فلادين لغير دولة ولادولة بغير دين .

كذلك لم تكن الديانة الإسلامية لتسمح بقيام العلمانية إلى جوار الإسلام بمقولة أن الإسلام يبقى داخل دائرة العقيدة والشعيرة ، وتعمل العلمانية فى دائرة الشريعة ، لأن الإسلام عقيدة وشعيرة وشريعة وهو فى هذا لايقبل التجزئة ولا التفرقة ولا ترضى أن يكون مع الله جل جلاله أرباب آخرون أو قياصرة آخرون يدين لهم الناس فى مجال الشريعة كما يدينون لله فى مجال العقيدة والشعيرة (١) .

ولهـــذا كله فشلت العلمانية فى الشرق الاسلامى ولم يجن منها إلا الانحطاط الخلقى والتدهور الاقتصادى والتخلف الحضارى .

ولذلك رفضت جماهير الأمة الاسلامية كل صور العلمانية وتعالت صيحاتها القوية المتلاحقة أن عودوا إلى قرآن ربكم وسنة نبيكم لتعود لنا الحياة من جـــديد ، لأن ضمائر الشعوب أدركت بحسها المرهف وضميرها الحى أن الاصلاح لهذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وأن عقاب الله العادل للشعب المسلم المتمثل فى الفقر والتخلف وضياع كرامة الإنسان — كان نتيجة حتمية للانحراف عن منهج الله القويم .

---

(١) انظر ص ٦٠ - ٦١ أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى طبعة أولى سنة ١٩٧٢ د . على جريشه وآخر - دار الاعتصام بتصرف .

وأنه لن يرتفع هذا العقاب حتى يعود المسلمون إلى دينهم الحنيف ، يلتفون حوله ويحكمونه فى كل شأن من شئون حياتهم وفى كل أمر من أمور دنياهم ، يستضيئون بضيائه ويسيرون على نهجه وهداه (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) (١) .

(١) سورة النور آية ٤٠ .

موقف الاسلام من العلمانية

الاسلام يرفض العلمانية .

إن العلمانية التى ظهرت فى ظروف خاصة ، وحاصرت الدين فى حيز ضيق ، أو فى ركن من أركان الكنيسة والتى عزلته تماما عن الحياة وتنظيمها — ولم تستطع القضاء عليه كلية — والتى نبتت شجرتها الملعونة فى بيئة الغرب الملحدة ، ثم تفرعت أغصانها تحمل ثماراً مرة وفروعا فاسدة ، أفسدت حياة الغرب كله ولم يجن منها سوى أمراض مدمرة من الشذوذ الجنسى والهوس العقلى ، والتوتر العصبى ، والمرض النفسى والضياع الاجتماعى والتدهور الأخلاقى .

هذه العلمانية التى تعنى فصل الدين عن الدولة وتجعل الحياة خاضعة لأهواء البشر وقوانين البشر وأخطاء البشر .

هذه العلمانية بكل صورها وفلسفاتها وفسادها ومفاسدها يرفضها الاسلام رفضا قاطعا ، فاذا كانت العلمانية تبعد الدين عن الحكم فان الاسلام ما جاء إلا من أجل الحكم .

ذلك لأن الإسلام ليس نظرية هندسية حسب المرء منها أن يفهم صحتها ويذكر أدلتها ، أو فلسفة . عقلية يتسلى الإنسان بمطالعتها ، ويدرسها إذا شاء لبعض عشاقها ، بل هو منهاج استوعب كل التعاليم الروحية والعملية والعلمية وقدم للناس قواعد بينة للاصلاح العام تمس من قريب شئون الفرد والمجتمع والدولة والأمة .

ومن الذى يزعم أن دعوة اصلاحية تبتعد عن ميدان الحكم تزهد فى الإفادة منه لمبادئها ؟

إن الاسلام لو لم ينص على أنه دين يبغى السيطرة على الدولة ، لما كانت هناك غرابة — مع ذلك — لاتجاهه إلى الحكم ومحاولته أن يتسلم مقاليده . !! ألا ترى الثورة فى فرنسا ؟

لقد قامت باسم الحرية والإخاء والمساواة ، فلم تنفذ أغراضها بالتبشير والدعاية ، ولكنها أسقطت الحكومة القائمة واستولت على زمام السلطة وباشرت تنفيذ مبادئها ، واعتبر إتجاهها إلى الحكم بداهة لاتحتمل جدلا . والثورة الدموية الحمراء التى اندلعت فى روسيا وقامت على مبادىء « ماركس » لم يخامر أصحابها قط أن الحكم بالنسبة لأغراضهم نافلة وأن أفكارهم يمكن أن تعيش بعيداً عن مراسيم السلطة ومظاهر القوة وهيمنة الدولة .

والاسلام — وهو تشريع ربانى كامل — قد جاء بمبادىء أزكى وأطهر وأنقى من المبادىء التى تمخضت عنها هاتان الثورتان ، وسبل الاصلاح التى شرعها يجب أن تحفر مجاريها العميقة فى حياة الإنسان وتاريخ الدنيا بالأسلوب نفسه الذى يتجه إليه دعاة الحق والخير فى كل زمان ومكان ، وهو ما حدث مع الرسول ﷺ صاحب هذه الشريعة فقد بدأ هاديا ومبشراً ونذيراً وانتهى قاضيا وقائدا وحاكما بعد ما تحولت رسالته من طور الدعوة التى تطارد وتضطهد إلى طور الدولة التى تأخذ لربها ولنفسها ماتريد .

والحكومة التى أقامها الاسلام حكومة فكرة معينة ومبادىء معينة وهى — فى نظر نفسها وعند الناس — ممثلة هذه الفكرة وحاملة لوائها ، وهى إذ تطلب التمكين فى الأرض والاستيلاء على الحكم إنما تقصد إلى تحقيق مراميها (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة

وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) (١) .

والدولة فى الاسلام إنما تنهض على احتضان مبادىء الاسلام والعمل بها والدفاع عنها والدعوة إليها .

والهدف الأول لوجودها ، تقديس عاطفة التدين واحترام حقوق الله وجعل كلمة الله هى العليا ، والحفاظ على كرامة الإنسان وعلى سعادته وحريته الكاملة ، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بمهام رئيس الدولة على هذا الاساس الواضح ، وكذلك مضى على سنته الخلفاء الراشدون من بعده .

طلبوا الحكم ووصلوا إليه ـ لا لشىء من جاة الدنيا وزينتها ـ ولكن لله ولكتابه وابتغاء وجهه ، وقد أفنوا أشخاصهم وأموالهم وأولادهم حتى قامت للاسلام حكومة ترعى عقيدته وتنفذ شريعته (٢) .

إن التعاون لابد منه بين الدين والحكومة أو بين الدين والسياسة فالاسلام فى جوهره أكثر من مجرد إيمان دين ، إنه نظام حياة ، يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية الدينية منها والزمنية .

فكما يجد الانسان فى الاسلام ما يشبع شوقه الروحى عن طريق الايمان بالله تعالى والتعبد له بالصوم والصلاة والزكاة والحج ، كذلك يجد فيه نظاما من القيم الأخلاقية والشرائع المدنيه التى تعطى أجوبة ، مفصلة عما يعترضه من مشكلات فى المعاملات اليوميه :

---

(١) سورة الحج آية ٤١ .

(٢) ص ٢٢ ـ ٢٤ الشيخ محمد الغزالى ـ من هنا نعلم ـ

إن الإسلام نظام كامل يدعو إلى حكومة تلتقى فيها الحياة الروحية بالحياة الدنيوية ، وبهذا المعنى فالإسلام نظام روحى ونظام زمنى ، كل منهما متصل بالآخر ، مكمل له ، فلا مجال للفصل بينهما .

ومن مبادىء الاسلام أن المسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين جميعاً أمة واحدة ذات رابطة روحية تستمد جذورها من التسليم بالله تعالى رباً والاعتراف بأحكام شريعته وما تنص عليه من واجبات على المسلم نحو حقوق للمسلم على المسلم .

فالشريعة هى القاعدة التى يجب أن تتم على أساسها التعاملات بين المسلمين وتبنى عليها حياتهم المدنية بكاملها ، كما أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب دينى ، لأن وحدة الأمة روحيا المسلم ومن منوطة بوحدتها السياسية .

ولذلك فالأمة فى الاسلام لاتكتمل مالم تتجسد فى دولة تتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب فرائض دينهم .

ولذلك ينبغى أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ليشهر على تطبيق القوانين وحفظ الشريعة وحماية مصالح المسلمين ونشر الاسلام ، والمدافعة عنه ضد أعدائه ، ويجمع بين السلطتين الزمنية والروحية فى خلافة تولى له على العموم بالمبايعة (١) .

والخليفة ليس سوى خادم للأمة وراع لمصالحها ، يحكم بشرع

---

(١) ص ٣٥ — ٣٦ سقوط العلمانية ، الاستاذ أنور الجندى .

الله ولا يحيد عنه (أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فان عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم)(١) .

ولا بد للمسلمين من خليفة حاكم يحفظ للمسلمين حقوقهم وأوطانهم فهو على حد تعبير الإمام النسفى فى « العقائد » (والمسلمون لابد لهم من إمام يقوم بتنفيذ أحكامهم وإقامة حدودهم وسد ثغورهم وتجهيز جيوشهم وأخذ صدقاتهم ، وقهر المتغلبة والمتلصصة وقطاع الطرق وإقامة الجمع والأعياد وقطع المنازعات بين العباد) .

يقول شارح « المواقف » :

بل نقول (نصب الامام من أتم مصالح المسلمين وأعظم مقاصد الدين) ويقول الامام « الماوردى » :

والامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا) ويقول « عضد الدين الايجى » :

إنا نعلم علما يقارب الضرورة أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والجهاد والحدود « وإظهار شعار الشرع فى الأعياد والجمع إنما هو مصالح عائدة إلى الخلق معاشا ومعادا)(٢) .

وها هو الشيخ محمد عبده ينص فى كتابه « الاسلام والنصرانية » على أن احد أصول الاسلام الأساسية الجمع بين مصالح الدين والدنيا والآخرة .

---

(١) من خطبة للصديق رضى الله عنه بعد توليته الخلافة

(٢) انظر ص ٢٦١ وما بعدها ـ الاسلام والخلافة فى العصر الحديث د . ضياء الدين الريس .

خصائص الحكومة الاسلامية

والحكومة الاسلامية لها خصائصها أو عناصرها الذاتية ، فلا يمكن أن يقال إن أية حكومة من أى نوع - علمانية أو غيرها - يمكن أن تحل محلها ، فهى تلك التى تقوم على الشورى فى حكمها وفى مبادئها وفى سيرها وقانونها هو شرع الاسلام .

والحاكم ليس إلا منفذا للشريعة ، والأمة هى صاحبة السيادة، ومصدر السلطان ، الامام ليس إلا وكيلا عنها ، وهى حكومة أو دولة غاياتها أخلاقية روحية تحكم بما أنزل الله وبما جاء به رسول الله ، وهذا مالا يتوفر فى الحكم العلمانى ، ولذا فان الاسلام - بكل المقاييس - يرفض حكم العلمانية بكل صوره وأشكاله .

إن القرآن الكريم - دستور المسلمين الخالد - كان يخاطب بتشريعاته الأمة الاسلامية كلها بجميع أجيالها ، وهى أمة متميزة بذاتها وأوصافها ، فهى أمة ذات كيان سياسى وإجتماعى منفرد .

يقول الله جل جلاله فى حقها (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فهل يمكن تنفيذ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدون تعاون ونظام وولاة أمر وحكم وقانون ؟!

وقد أمر الاسلام بالجهاد فى سبيل الله ، فهل من المستطاع أن يذهب كل فرد على حدته لقتال الأعداء ؟

هل يقال إن الأمة نزلت عند حكم الله إذا أرسلت أبناءها فرادى

قياما بواجب الكفاح المنشود ؟ لا ، وألف لا .

بل هناك تجنيد عام وقوى متساندة وقيادة منظمة ووسائل عرفتها الأمم بالبداهة ، فكونت الجيوش ورسمت الخطط ، وعلى الفرد أن يسلم نفسه فى سن معينة للدولة وهى تصنع به ماتشاء وتكلفه بما ترى .

وبذلك يكون قد أدى ركن الجهاد ، ولو أدى هذا الواجب الاجتماعى بأسلوب فردى لفشلت الدولة فى الدفاع عن نفسها ، بل لفشل الفرد فى العودة بنفسه سالما .

ومثل ذلك تكاليف الخدمة الاجتماعية التى تفرض على المرء من الزكاة والصدقات وما إلى ذلك .

إن الإسلام عقيدة وأنظمة وأعمال ، ووظيفة الدولة محددة فى القرآن والسنة تحديداً لا يحتمل لبسا .

ويوم يفقد الاسلام سيطرته على الحكم فستبقى الكثرة الساحقة من تعاليمه حبرا على ورق ، لأن تنفيذها عن طريق الفرد مستحيل وتنفيذها عن طريق حكومة علمانية أكثر استحالة .

وليست العبادات الاجتماعية هى التى ستشل وتذوى فقط ، بل العبادات الشخصية من صلوات واستغفارات وصيام وغير ذلك ، إنها عندما تحرم كنف الدولة تنكمش وتموت ! . فكيف - إذا كان الحكم علمانى - وتجهمت لها الدولة ونبذت ذويها وحرمتهم رعايتها . . ؟

إن وظيفة الحكم فى الاسلام ليست إدارية فقط ولا قضائية

فقط بل هي إدارية قضائية عبادية ، تضم النواحي جميعا في عروة لا تنفصم (١) .

إن أكثر ما جاء في الإسلام من الأحكام لا يدخل تنفيذه ـ كما قلنا ـ ضمن اختصاص الأفراد ، لأنه من اختصاص الحكومات ، وهذا وحده يقطع بأن الحكم من طبيعة الإسلام ومقتضياته ، و بأن الإسلام دين ودولة .

إن الذين يريدون أن يشطروا الإسلام ، فيفصلوا بين عقيدته و نظام حكمه ، إنما يريدون أن يفصلوا رأس الأمة عن جسدها ، فالإسلام كل لا يتجزأ وبنيان واحد متماسك اللبنات ، وإن انتزاع أي ركن من أركانه سيزلزله على رؤوس أصحابه جميعا (٢) .

إننا لا نرضى بدولة علمانية ، فشرع الله تعالى أحب إلى قلوبنا وعقولنا وأرعى إلى مصالحنا ، وأدعى إلى سعادتنا من شرع الشرق والغرب معا .

والله تعالى أعلم بشؤون دنيانا وآخرتنا ، وأعلم بما يصلح شؤوننا وما يؤخذ بأيدينا نحو الخير والمجد والسؤدد (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)(٣) .

إن الإسلام ـ وهو وحي الله الخالق إلى الإنسان المخلوق ـ وما جاء

---

(١) ص ٥٥ ـ ٥٦ الشيخ محمد الغزالي من هنا نعلم .

(٢) انظر ص ١١٩ من مؤامرة فصل الدين عن الدولة للاستاذ . محمد كاظم وص ٩٢ دولة القرآن ـ طه عبد الباقي سرو .

(٣) سورة الملك الآية ١٤ .

به من بيان الحقيقة الإنسانية ومقوماتها الفطرية ، وكشف عن الحقيقة العليا التي تكمن وراء هذا العالم وما لها من صفات الجلال والكمال ، وتقرير منهج الإنسان فى الحياة بمختلف أبعادها بما يضمن للإنسان حريته ويحفظ عليه كرامته ، كل ذلك وغيره من وضع رب السماء ، إنه الوضع الإلهى المعصوم من الخطأ والإنحراف ، وتلك خصيصة كال لم تتحقق ولن تتحقق لإنسان .

ومن هنا فقد انطلق الإسلام ـ وهو دين الفطرة ـ بالإنسان فى مواجهة الحياة متخذا من الإيمان بالله مرتكزاً قوية ، ويقينا خالصاً ، فحول عقيدة الايمان بالله تلتقى جميع أصول الإسلام وفروعه فى جميع الحالات ، وشريعة الإسلام وحدة متكاملة لا تنفصم عراها ، ولا يكتفى ببعضها دون البعض الآخر ، ذلك لأن الخروج على بعض أصول الشريعة الإسلامية إنما هو خروج على الدين كله ، وحسبنا أن نعلم أن من استحل المنكرات واستباحها لنفسه فإنه يتساوى ـ فى الكفر بالله ـ مع من ينكر الحدود الشرعية والعبادات الدينية ، فالكل قد أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة ، ومن ثم فإنه يخرج من دين الله .

ومن هنا كان إنكار أصل من أصول العقيدة كفرا بالله ، وكان إنكار العبادات كفرا بالله وكان رفض الحدود الشرعية أو إنكارها كفرا بالله .

الإسلام وحدة متكاملة لا يتجزأ ،
والإنسان وحدة متكاملة لا تتجزأ .

وما انحرف الماديون والعلمانيون إلا لأنهم قصروا النظر فى الإنسان على جانبه المادى فحسب ، واعتبروا الإنسان كتلة مادية ،

وما فيه من حياة روحية وعقلية ونفسية وشعورية كل ذلك إنما هو أثر من آثار المادية فقط .

أما الإسلام - وهو الوحدة المطلقة - فإنه ينظر إلى الإنسان على أساس من الوحدة الإنسانية المتكاملة ، ومن ثم فإنه يعطى كل جانب من جوانبه ما يليق به وما يناسبه من الاهتمام والتقدير دون أن يطغى بجانب منه حساب ما عداه من الجوانب الأخرى ، ولذلك يكون الإسلام دين الشمول والكمال(١) .

فكيف نترك دين الشمول والكمال ونبحث عن حكم علمانى جاء لأوربا فأفسدها وقضى على طمأنينة أهلها ؟

كيف نترك الإسلام الذى جاء ليخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله ، ومن جور الحكام إلى عدالة القرآن ، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم والإيمان ، وأن الناس بنو آدم وحواء وأنهم جميعاً إخوة لأب وأم ؟ .

الإسلام الذى حرر الفرد ضميرا ووجدانا وقولا وعملا وعقيدة فى غير استهتار أو نزاوت ، وحرر الجماعات من رق الفوارق وسموم الحقد فى غير صراع ولا شهوات ، وحرر المحكومين من قبضة الحاكمين إلا بالعدل والحق فلا طاعة فى معصية ولا استجابة فى باطل . وحرر الأمم من شهوة الاستعمار ، فلاعدوان ولا قتال للتملك والاستعلاء فإن بغت أمة على أمة (فقاتلوا الله تبغى حتى تفيء إلى أمر الله)(١) .

---

(١) ص ١١ - ١٢ الإسلام والتيارات المعاصرة للدكتورين عبدالمعطى بيومى وأحمد الشاعر الطبعة الاولى سنة ١٩٧٩ دار الطباعة المحمدية :

(٢) سورة الحجرات من الاية ٩ .

وحرر كل شيء سواء أكان ماديا أم روحيا بكلمة واحدة هي ميزان السموات والأرض وهي صلاة الناس وهي عدالة الخلق وهي عقيدة الدنيا وسبيل النجاح في الأخرى : إنها كلمة : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

الإسلام الذي جعل المال مال الله ، وعباد الله مستخلفين فيه لخيرهم ولخير الناس وجعل الأرض لمن يفلحها ولمن يزرعها بنفسه فإن لم يفعل ثلاث سنوات فقد عطل مرفقا عاما ووجب أن تنتزع منه وتعطى دون مقابل لمن يحييها ويزرعها .

الإسلام الذي جعل لكل إنسان بيتا وزوجة وعملا يتكفل أجره بحاجاته على السعة من كساء وغذاء ودواء من غير ضيق ولا عسر ، فإن لم يجد فعلى بيت المال أن يقوم به وبأسرته حتى تدبر الدولة له عملا . فإن الحاكم مسئول عن أقوات الرعية .

الاسلام الذي جعل لكل جاهل معلما يعلمه ، ولكل أعمى قائدا يأخذ بيده ، وأمر أن تكون المكتبات في الحدائق العامة للناس جميعا ، حتى ينعم الشعب بصحة الجسد وصحة العقل .

الاسلام الذي جعل فريضة مقررة في بيت المال لكل مولود يولد في الاسلام ويمشي الأجر مع حياة الطفل صعودا . حتى يبلغ أشده ويأخذ حظه من التعليم أو الصناعة أو التجارة أو الجندية وما إلى ذلك :

الاسلام الذي حدد وظيفة الحاكم فجعله راعيا يسوس الناس لخيرهم ولإقامة شريعة ربهم ، وهو بعد كأحدهم لا يجوز له أن يكون له في

---

(١) سورة الحجرات من الآية رقم ٩ .

مطعمه وملبسه ومركبة أكبر مما يأخذ أواسط الناس ، وجعل له على المسلمين الطاعة والنصح والعون ما دام على الصراط المستقيم ، فإن انحرف فكتاب الله هو الفيصل والحكم . الإسلام الذى يدور تشريعه مع الحياة ومع الصالح العام فى غير ضيق ولا حرج ولا تعنت ولا جمود .

فيقول قرآنه : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)(١) . (ماجعل عليكم فى الدين من حرج) .

ويقول أحد أتباعه : (فأينما وجدت المصلحة فثم شرع الله)(٢) .

وحيثما وجد الضرر وقفت الحدود ـ سدا للذرائع (٣) .

والله جل جلاله يحب لعباده الرحمة واليسر والسعة ويكره أن يصيبهم الضيق والضرر والشدة .

ولقد سن لهم الشرائع لتحقق لهم ما يحب ويرضى فشرائع الله تدور مع الخير واليسر : « أينما وليا وجهيهما » .

كما يقول ابن القيم ورضوان الله ورحمته على أم المؤمنين عائشة إذ تقول : (ما خير رسول الله بين أمرين إلا أختار أيسرهما) .

الإسلام الذى يحب العزة ويكره الذل ، ويجعل الخير فى اليد العليا

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٨٥ .
(٢) الإمام الطوفى .
(٣) من أقوال المالكية .

ويكرم يد العامل لأنها يد كادحة صانعة حتى إن الرسول ليقول: (إنها يد مباركة بارك الله فيها) ويجعل من يهضم حقها أو يؤخر أجرها خصيما لله تعالى، كما يكره أن يرى إنسانا فارغا من عمل الدنيا أو عمل الآخرة، لأن الفراغ حليف الشيطان.

الإسلام الذى وحد البشرية كافة فلا ألوان ولا جنسيات ولا عصبيات بين الناس، بل الجميع سواسية، لا تفاضل إلا بالتقوى، وليست التقوى عبادة فحسب، بل إن العمل الصالح فى الدنيا الذى ينفع الناس ويدفعهم خطوات فى طريق العلم أو فى طريق الخير والرفاهية لهو من التقوى أيضا.

الإسلام الذى يرقب صدور الناس وقلوبهم، كما يرقب أعمالهم وأفكارهم ثم لا ينظر إلى وجوههم وأموالهم لأنها ليست شيئا فى موازين الخير والإيمان إلا إذا اتجهت إلى خير الناس.

الإسلام الحضارى الرءوف الرحيم بكل ذى كبد حى، حتى لتدخل امرأة النار فى هرة حبستها، فلاهى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض، ويدخل الجنة رجل رأى كلبا ظامئا فى الصحراء فسقاه فغفر الله له فأدخله الجنة.

الإسلام الذى نهى عن القسوة أيا كان موضعها حتى لينهى عن المثلة بالكلب العقور.

الإسلام الذى جهله أتباعه فنكثوا عهد الله وتخلوا عن رسالتهم العالمية وأفسحوا الطريق للعلمانية أو غيرها، وأطفأوا أنوارا أراد الله لها أن تضىء، وأغلقوا أبوابا للخير كانت هدى ورحمة

للعالمين (١) .

لقد شمل الاسلام كل جوانب الحياة والكون والإنسان مع مجالاته المختلفة .

فني مجال العقيدة :

(قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)(٢)
(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون)(٣) .

وفي مجال الحكم :

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون)(٤) .

وفي مجال السياسة :

يفصل القرآن الكريم مبدأ الولاء الذي هو مبدأ أساسي في سياسة الأمة الإسلامية فيقول :

---

(١) انظر ص ٢٤ وما بعدها - دولة القرآن - طه عبدالباقي سرور ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة ، القاهرة .
(٢) سورة الإخلاص آية ١ ، ٤ .
(٣) سورة آل عمران آيه ٦٤ .
(٤) سورة المائدة : آية ٤٩ .

(إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) (١) .

وفى مجال الرأى وصنع القرار:

(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر)(٢) .

فالشورى هى القاعدة التى ينطلق منها القرار ولأهمية هذه الشورى يجعلها القرآن أحد صفات المؤمنين التى لا تفارقهم فيقول :

(والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون)(٣) .

فيقرن هنا الشورى بالصلاة والزكاة ، فمنزلتها فى حياة الأفراد المؤمنين وحياة أمتهم تجعلها الآية هنا بمنزلة الصلاة والزكاة (٤) .

ذلك لأن الشورى هى التى تجنب الأمة الحكم الفردى الدكتاتورى

---

(١) سورة المائدة آيه ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

(٣) سورة الشورى آية ٣٧ ، ٣٨ .

(٤) ص ١٦ العلمانية وتطبيقها فى الإسلام . د . محمد البهى الطبعة الاولى سنة ١٩٨٠ مكتبة وهبه بالقاهرة .

والحكم التعسفي الذي لا يسمع رأيا غير رأيه ولا يرى الحق إلا من خلال شهوات صاحبه .

وفي مجال المـــال :

يوضح الإسلام أن المال قوام الحياة في الأمة كلها . وفي قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) (١) .

ما يقدم الدليل على وجوب الحجر على أموال السفهاء - وهم الذين ينفقون المال في محرم أو في غير موضعه - بسبب أن هذه الأموال وإن كانت ملكا خاصا للسفهاء لكنها « العماد » في حياة الأمة كلها (التي جعل الله لكم قياما) .

كما يوضح أن الملكية الخاصة للمال هي في واقع أمرها ملكية استخلاف وتفويض من الله جلت قدرته إذ يقول تعالى : (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)(٢) .

وفي مجـال الاقتصاد :

فإن الاقتصاد في الإسلام لا يقف عند حد العمل في الزراعة والتجارة وحدهما وإنما معهما الصناعة كما يستفاد من قوله تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)(٣) .

---

(١) سورة النساء آية ٥ .
(٢) سورة الحديد آية ٧ .
(٣) سورة الحديد آية ٢٥ .

كما تقوم المعاملة فيه على حرية العقد ، والبعد عن الغبن فيه . ولو مترقبا كالغرر ، وتجنب الاحتكار كما هو مفصل فى فقه المعاملات التجارية والزراعية .

وفى الجانب الإجتماعى :

يفرض الاسلام (التكافل) كعبادة وقربى إلى الله تعالى : بسد حاجة المحتاج ، والوقوف بجانب الغارم فى سبيل مصلحة عامة أو تحت ظروف غير إرادية ، وبمعاونة الإنسان على استرداه حريته واعتباره البشرى ، كحق طبيعى له ، وبتعويض المدافع عن المثل العليا للمجتمع ، كما جاء فى تحديد مصارف الزكاة (١) ،

وفى مجال الأسرة :

يحرس الإسلام على التضامن بين أعضائها :

أولا : عن طريق الشورى والرعاية المتبادلة بينهم كمجموعة من المؤمنين لعموم قوله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) ولعموم ما جاء فى الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) .

وثانياً : بالتزام القادر من أعضاء الأسرة بنفقة الضعيف فيها : لصغر فى السن أو لشيخوخة فيه ، أو لعجز ، أو لحائل يحول دون العمل والسعى فى سبيل الرزق .

وثالثا : بإسناد أمر التوجية وتنفيذ ما استقر عليه الأمر إلى الرجل

---

(١) ص ٣٩ الدكتور محمد البهى ـ العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق مطبوعات مجمع البحوث الإسلاميه مطبعة الأزهر بدون تاريخ .

كزوج أو أب : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)(١) .

فقوامة الرجل فى إرادته والتنفيذ معا ، وفى قدرته وطاقته على السعى فى سبيل الرزق والعيش ، وهى إرادة وطاقة من طبيعته الخاصة التى لم يخلق لها ثديان ، ولا تتعرض طول حياتها للحمل والولادة .

والاسلام كدين ، يفخر بالحفاظ على وحدة الاسرة ، لا لأنه يميل إلى النظام القبلى أو هو قائم عليه - كما قد يدعى - ولكن لأن وحدة الأسرة هى القوة الأولى فى المجتمع الإنسانى : فى تماسكه وبقائه .

وفى الوقت الذى تعيب فيـــه بعض النظم العلمانية على الدين - كدين - العناية بأمر الوحدة فى الأسرة فى الدين - وهى وحدة طبيعية - تسعى هذه النظم إلى خلق « وحدة » عوضا عنها من (خلية) جماهيرية لا تعدو الصلة بين أعضائها أن تكون (الدافع) إلى ما يسمى (بالتلاحم) وهو تلاحم بدنى يبقى ما بقيت القوة فى الدفع نحوه ..

ولكنه سرعان ما يتبدد إذا ضعف الدافع والممسك به ، لأن الرباط عن طريق (الفكر المادى) يبقى فى حدود الأنانيات ، ويستحيل عليه أن يصهرها فى وحدة جماعية نفسية .

وفى مجال التوجيه :

لا يرى الاكراه ، ولا ما هو متنافر مع طبيعة الإنسان من عوامل

---

(١) سورة النساء آية ٣٤ .

التوجيه له ، إنه لا يلزمه بأمر ما ، وإنما يضع أمامه الدعوة إلى مبادئه ، وله مطلق الحرية . . والمشيئة فى الإيمان او عدم الايمان بها (لا اكراه فى الدين)(١) (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) (٢) .

فإن آمن فهو يلتزم من ذاته بما آمن به فى التوجيه ، والسلوك ، والمواقف ، فلا يلزمه تتبع البوليس – ولا إرهاب الأجهزة السرية الأخرى ، ولا سلطة القانون ، ولذا فالدولة فى الاسلام دولة إنسانية أخلاقية ، وليست دولة بوليسية(٣) .

وفى مجال العمل فى سبيل الرزق :

(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) (٤) (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)(٥) .

إن الاسلام قد صنع لنا حضارة لم يشهد التاريخ لها نظيرا وهو قادر على صنعها مرة أخرى لو وجد أمما تحكم به وتعمل به وتسير على نهجه وهديه وهداه .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

(٢) سورة يونس آية : ٩٩ .

(٣) ص ٤١ ، ٤٢ العلمانية والاسلام بين الفكر والتطبيق ، د . محمد البهى — مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية – مطبعة الأزهر – من غير تاريخ .

(٤) سورة الجمعة آية ١٠ .

(٥) سورة الملك آية ١٥ .

يقول الفيلسوف المسلم محمد اقبال وهو يخاطب الجماهير الاسلامية:

(إن الدين الذى تحملون رايته يقرر قيمة الفرد ويربية تربية تجعله يبذل كل ما عنده فى سبيل الله وفى صالح عباده. إن مضمرات هذا الدين القيم وكوامنه لم تفنه بعد، إن فى استطاعته أن يوجد عالما جديدا يحى فيه الفقراء أغنياء، لا يقوم فيه المجتمع على مساواة البطون، بل يقوم على مساواة الأرواح)(١).

ويقول (أميل درمنجم):

(الاسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية لاصلة لها بالمادة ولا بالحياة، وإنما الاسلام عقيدة ترتكز على المادة والروح والدنيا والآخرة: . جسم وروح ودولة ودين وحياة وغيب، الاسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيدا لنظريات الإجتماع الحديثة، بل لأنه يدفع الإنسان دوما إلى الامام)(٢).

ويقول: «هانوتو» المستشرق الفرنسى:

إن الإسلام دين وسياسة وأن شعور المسلمين بهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة الوطنية: فالوطن عنـــدهم هو الإسلام وهم يقولون:

(إن السلطة مستمدة من الألوهية، فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون)(٣).

---

(١) ص ٩١ نقلا من: الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية — للندوى.

(٢) ص ١٩٦ من سقوط العلمانية، الاستاذ أنور الجندى.

(٣) ص ٤٧ الحلول المستوردة، د/ يوسف القرضاوى.

ولهذا فقد اختار الله تبارك وتعالى الإسلام لنا دينا وطريق هداية ومنهج حياة وسلوك (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) (١) .

إن الدين الحق لا يمكن ابتداء أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة فالالتزام بالشريعة ـ في دين الله الحق ـ هو مقتضى العقيدة ذاتها ، مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، بحيث لا تكون الشهادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى وهو الالتزام بما جاء من عند الله والتحاكم إلى شريعة الله ورفض التحاكم إلى أي شريعة سوى شريعة الله (٢) .

---

(١) سورة المائدة آية : ٣ .

(٢) ص ٤٥٧ مذاهب فكرية معاصرة الأستاذ محمد قطب ، طبعة أولى سنة ١٩٨٣ م دار الشروق ـ بيروت .

الإسلام والمادة

وإذا كانت أوربا اعتمدت فى نهضتها على المادة فقط ، فإن الإسلام لم يهمل المادة ، وإنما إهتم بالروح والمادة معا :

لقد اهتم الإسلام بالمادة اهتماما كبيرا ، فلم يهمل واقع الأرض ، ولم يهمل عالم المادة والتاريخ هو الدليل وهو الشاهد :

لقد نشأ الاسلام فى البادية العربية ، فى بلاد لا تعرف الحضارة المادية إلا القليل الذى يهبط عليها من أصقاع الأرض . من القوافل الغادية والرائحة ، ولا تهتم هذه البادية إلا بالشعر والحروب القبلية ، لا تفكر فى علم ولا اختراع ولا بحث تجريبى ولا تفكير نظرى .

لكن الإسلام بعثها بعثا عنيفا متدفقا كأنما هى سيل ينحدر من ارتفاع شاهق فيملأ السهول والوديان ، بعثها فإذا هى تنشط فى كل ميدان من ميادين النشاط البشرى فى العلم والعمل فى الحرب والسياسة فى الفقه والتشريع .

وما أسرع ما وقع المسلمون على علوم الأغريق والمصريين والهنود من طب وفلك وطبيعة وكيمياء ورياضيات ، فنهلوا منها فى نهم وانطلقوا يضيفون فى كل فرع منها إضافات حية أصلية ، تقدمت بالمعرفة الإنسانية أشواطا هائلة وعاها التاريخ ووعتها أوربا بصفة خاصة .

إذ قامت كل نهضتها الحديثة عليها ، وإن كانت الخسة قد

أدركتها فتنكرت للمسلمين الذين تتلمذت على أيديهم فى الأندلس وغير الأندلس ، وراحت تحاربهم وتجليهم من الأرض ثم تستغلهم أبشع إستغلال .

والمذهب التجريبى الحديث الذى قام عليه كل العلم الأوربى هو — باعتراف الأوربيين أنفسهم — تراث إسلامى أصيل .

يقول ه . ر . جب فى كتابه (الإتجاهات الحديثة فى الإسلام) :

(أعتقد أنه من المتفق عليه أن الملاحظة التفصيلية الدقيقة التى قام بها الباحثون المسلمون قد ساعدت على تقدم المعرفة العلمية مساعدة مادية ملموسه وأنه عن طريق هذه الملاحظة وصل المنهج التجريبى إلى أوربا فى العصور الوسطى) وفى ذلك الإعتراف ما يكفى لاثبات جهد المسلمين الملموس فى ترقية العلوم — نظريها وتجريبيها — وقت أن كانوا مسلمين .

ولكن هذا التقدم المادى — الذى قطعوا فيه أشواطا عظيمة — لم يفتنهم قط ولم يخرج بهم عن إنسانيتهم وتلك مزية الإسلام .

إن المسلمين لم يفتنهم التقدم المادى فينقطعوا عن الله ومنهجه وعبادته والسير على هداه ، لم يفتنهم فينقطعوا عن عالم الروح . ولم يفتنهم فيستغلوا علمهم فى سبيل الشر . لم يفتنهم فيحولهم إلى المادية الكريهة التي تسيطر اليوم على الغرب كله ، لم يفتنهم فينبذوا أخلاقهم جانبا بحجة أنهم تقدميون ، بل سار العلم فى ظلال العقيدة يكشف ويصل كل يوم إلى جديد وهو ماض فى طريق الخير لأنه سائر في طريق الله .

وإذا كانت الفلسفة العلمانية والنظرة المادية للكون والحياة قد أوجدت هذا العداء الرهيب بين الغرب وبين الله ، وبين العلم والدين ، فرأينا التنكر لله ورأينا الإلحاد ومعاداة الدين وعزله عن الحياة ومهاجمته والسخرية منه وأن - لا إله والحياة مادة - فإنه لا يوجـــد فى حياة المسلمين تلك النفرة الكريهة بين الله الخالق والمسلم المخلوق .

لقد أثرت فى لا شعور الأوربيين تلك الأسطورة اليونانية النكدة أسطورة « برومثيوس سارق النار » فشكلت مشاعرهم تجاه الله سبحانه وانحرفت بهم عن منهم وهداه .

وهذه الأسطورة تصورا لعلاقة بين البشر والآلهة . . علاقة صراع دائم وضغينة وأحقاد . علاقة لا ترف فيها مشاعر الرحمة أو العطف أو المودة ولا يهدأ أوارها حتى يشتعل من جديد .

(والمعركة قائمة على النار المقدسة « نار المعرفة » البشر يريدون أن يستولوا على هذه النار المقدسة ليعرفوا أسرار الكون كلها ، ويصبحوا آلهة والآلهة تنكل بهم فى وحشية وعنف لتنفرد وحدها بالقوة وتنفرد دونهم بالسلطان تلك إذن طبيعة العلاقة بين البشر والله العلاقة التى اندست فى أوهام الأوربيين وصارت تصرف أفكارهم بغير وعى .

العجز وحده هو الذى يخضعهم لمشيئة الله وهم غير راضين عن هـذا العجز ولا ساكتين عنه ، فهم فى محاولة دائمة يطلبون القوة ويطلبون المعرفة ، يحاولون دائما أن يقهروا هذا العجز أو يقهروا بلغتهم - الطبيعة - أو بلغتهم اللاشعورية أيضا ينتزعوا الأسرار ،

ينتزعوها من الإله الوثنى القديم الذى كانوا يحاولون أن ينتزعوا منه ناره المقدسة :

وبهذا الدافع الخفى المطبوع فى أعماق النفس الغربية - فى أعماق اللاشعور - يحس الغربيون أن كل خطوة يخطوها العلم ترفع الإنسان فوق نفسه درجة وتنزل الإله من عليائه بنفس القدر. وتظل المعركة هكذا دائرة : كل فتح جديد من فتوحات العلم يخفض الإله، ويرفع الانسان حتى تأتى اللحظة المرقوبة التى يتأله فيها هذا الانسان.

يقول : «جوليان هكسلى» فى كتابه الانسان فى العالم الحديث :

كان الانسان يخضع لله بسبب الجهل والعجز، والآن بعد أن تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر الجهل والعجز على عاتق الله ويصبح هو الله (١).

وفى أوربا التى يسيطر فيها العلم المنقطع عن الله، والمادة المنقطعة عن الروح أحدث التقدم المادى الضخم انقلابا خطيرا فى كيان الانسان، انقلابا أدى به إلى أن يكون آلة حيوانية تعمل كالآلات.

أما العلاقة الدائمة بين العبد وخالقه فى الاسلام : فهى علاقة المودة والحب والتطلع والرجاء.

والبشر لا يحتاجون إلى أن يصارعوا الله جل جلاله ليحصلوا على

---

(١) نقلا عن ص ٤٦٠ مذاهب فكرية معاصرة. الاستاذ محمد قطب. طبعة أولى سنة ١٩٨٣ دار الشروق - بيروت.

المعرفة فهو سبحانه وتعالى قد أعطاها لهم ، وإهبها منعما فياضا بالخير والاحسان ، إنه جل وعلا هو الذى وهب للناس : (السمع والبصر والأفئدة) .

وهو الذى : (جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) .

وهو الذى : (سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه) .

وهو : (الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) .

وهو الذى فصل بين مستوى الخالق ومستوى المخلوق فصلا تاما : (ليس كمثله شىء) (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) . فلا يختلط الإنسان فى خطئه وصوابه بالله تعالى فى قدسيته وحكمته وعلمه .

ومن هنا فإن الرد على هذه المواهب والنعم التى أسداها الخالق للمخلوق - هو الشكر والوفاء والمودة والمحبة والسجود له والخضوع لعظمته وليس العصيان والكفران(١) .

فليس لدينا إذن سبب واحد لتنحية الإسلام عن المجتمع ، لامن طبيعته الخاصة ولا من ظروفه التاريخيـــة ، كالأسباب التى لازمت المسيحية فى أوربا فعزلت الدين عن الدنيا ، وتركت للدين التهذيب وتطهير الوجدان ، بينما تركت للقوانين الوضعية تنظيم المجتمع وتسيير الحياة .

---

(١) انظر ص ١٢٠ ومابعدها : منهج التربية الإسلامية جـ ٢ طبعة أولى سنة ١٩٨٠ دارالشروق للاستاذ محمد قطب - بتصرف .

كذلك ليس لدينا أسباب حقيقية للعداوة بين الإسلام والكفاح لتحقيق العدالة الاجتماعية فى حدود المنهج الإسلامى والشريعة الإسلامية — كالتى لابست العداوة بين المسيحية والعلمانية .

فالاسلام يفرض قواعد العدالة الاجتماعية ويضمن حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء ويضع للحكم والمال سياسة عادلة . ولا يحتاج لتحديد المشاعر ولا دعـــوة الناس لترك حقوقهم عـلى الأرض وانتظارها فى ملكوت السموات ، بل إنه لينذر الذين يتنازلون عن حقوقهم الشرعية — تحت أى ضغط — بسوء العذاب فى الآخرة ويسميهم ظالمى أنفسهم .

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)(١) ويحرضهم على القتال لحقهم (من قتل دون مظلمته فهو شهيد)(٢) .

فإذا اضطرت أوربا لتنحية الدين عن حياتها العامة ، فلسنا بمضطرين أن نجاريها فى هذا الطريق(٣) .

لقد أثبتت التجارب وشهد الواقع أن النظم الوضعية والنظريات والمذاهب السياسية الى سارت عليها حياتنا قد فشلت فشلا ذريعا ، وساءت فى ظلها الأحوال وفسدت الأوضاع واختل ميزان المجتمع

---

(١) سورة النساء آية : ٩٧ .

(٢) رواه النسائى .

(٣) ص ١٦ العدالة الإجتماعية فى الاسلام — سيد قطب .

وتزعزعت القيم والأخلاق وأصيبت الحياة كلها بالإضطراب والتعفن والعطن .

لم تستطع هذه القوانين الوضعية أن تحقق التقدم المنشود للبلاد وأن تسير بالنهضة فى طريقها الصحيح .

ولذلك فإننا ننادى بأن نعود إلى الدين الذى أصلح حياة المجتمعات التى عانت من مفاسد الجاهلية الأولى كى يصلح حياتنا ويسعد مجتمعاتنا ، ولا سيما وتحكيم شريعة الله تعالى والسير على منهجه وهداه مطلب شعبى عام ، وقبل هذا المطلب هو أمر من خالق الكون سبحانه وتعالى .

وإن كان عند بعض الناس شك فى أن الاسلام أصلح الحياة يوم أن ران عليها التعفن والجمود وظهر الفساد فى البر والبحر ، فإننا نقدم لهؤلاء القلة - شهادة رجل معاصر ، يوضح ماذا فعله رسول الاسلام فى العالم كله وقت ظهور فجر الاسلام .

يقول . ع . هـ . دينسون فى كتابه (العواطف كأساس للحضارة) :

ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والإنحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ، ولا نظام .

أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة إمتد

ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح ، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب .. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه(١).

وإذا كانت هذه شهادة رجل معاصر ، فإن هناك شهادة قديمة تحدث بها جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى وصور فيها حالة الجزيرة العربية وبين فضائل الاسلام حيث قال :

كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف حسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لتوحيده (٢) .. الخ .

فهل هناك بعد ذلك كله شك فى أن الاسلام هو المنهج الذى يصلح كل زمان ومكان ؟

وهل يكون ـ بعد ذلك ـ من المعقول أو من المقبول أن تسقط رايه الحكم الاسلامى وترفع أعلام العلمانية السوداء المهلهلة ؟

إن الطريق واضح ، والحق أبلج ، والتاريخ خير شاهد على حضارة صنعها ديننا العظيم كانت غرة فى جبين الحضارات قاطبة .

فلنحكم بما أنزل الله ولنتبع تعاليم الاسلام ولا نتبع الهوى والشيطان

---

(١) نقلا من كتاب الإسلام والنظام العالمى الجديد ـ تأليف مولاى محمد على وترجمة الاستاذ أحمد جودة السحار .

(٢) انظر سيرة ابن هشام وفجر الإسلام لأحمد أمين ص٧٦ مطبعة النهضة المصرية الطبعة الحادى عشر سنة ١٩٧٥ .

فالله جل جلاله يقول (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)(١) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك) .

وإذا كانت النهضة الأوربية قد اقترنت بالعلمانية بل وارتكزت عليها بعد أن اقترن انحطاطها بهيمنة الدين والكنيسة على الدولة والمجتمع فإن مسيرة حضارتنا الاسلامية قد كانت فى هذا الأمر على العكس والنقيض . . .

فلقد اقترنت النهضة الاسلامية بهيمنة الشريعة الاسلامية على الدولة المدنية الاسلامية . على حين كان الانحراف عن « إسلامية القانون » بداية طريق أمتنا إلى عصور الجمود والانحطاط(٢) .

إننا نريد أن نرفع راية الاسلام وأن نسير تحت ظلها الوارف من جديد نريد أن يتوافق المسلمون مع دينهم ومصلحتهم ، كما يتوافق اليهود مع دينهم ومصلحتهم ،وكما يتوافق الماركسيون مع مذهبهم ومصلحتهم ، وكما يتوافق الغرب مع عقائده ومصالحه .

إن المسلمين وحدهم هم الجبهة المفككة روحيا وماديا ؟ الحافلة بالتناقضات ، المتعثرة الخطى ، وكيما يزول هذا الوضع المستنكر الكريه ، يجب أن نبصر الحقائق التالية ونتجاوب مع وحيها الحاسم

---

(٣) سورة الانعام آية : ١٥٣ .

(١) ص ٢٩ د . محمد عمارة : العلمانية ونهضتنا الحديثة : طبعة أولى سنة ١٩٨٦ دار الشروق .

يجب أن تزول الفجوة التى بيننا وبين الإسلام، وأن تقف فورا الحرب الفاجرة المعلنة على تعاليمه وأشياعه

لقد تضافرت جهود ضخمة لسحق الدين ومحو آثاره النفسية والفكرية ، فضاع الاسلام من قلوب كثيرة وشبت أجيال لا إيمان لها ولم يستطع فكر آخر أن يشغل مكان العقيده المضطهدة .

فلما خلا المجتمع العربى والمسلم من الايمان الحى إنهارت الأخلاق ، وعربدت الشهوات وطغت الأثرة . . . . والمجتمع الذى خلا من العقيدة لا يصلح أبناؤه فى حرب ولا فى سلام مهما يزعم لنفسه من تقدم .

بل إن أصحاب العقائد الوثنية يستطيعون سبقه فى ميدان الإنتاج والنيل منه فى ساحات الوغى إن المسافة لا تزال بعيدة بين المسلمين ودينهم عمليا وعلميا .

وفى مراحل هذا البعد تجد العلمانية والمذاهب المناوئة والأعداء المتربصون ألف ثغرة وثغرة للنفاذ إلى قلب العالم الإسلامى ولا سبيل لصد عداوتهم غير الانضواء تحت راية الدين وحكمه (١) .

إن الإسلام لو ظهر فى أوربا أو بعبارة أدق لو طبق منهج الإسلام فى أوربا ما نشأت العلمانية فى الفكر الأوربى . وما وصل تفكير بعض المفكرين إلى التطرف فى المادية والجنوح إلى شحن النفوس بالاحقاد ودفعها إلى الإنقلاب الدموى لحل بعض المشاكل الإجتماعية .

---

(١) ص ١٠٥ – ١٠٦ الإسلام ومشكلات العصر ـ الدكتور مصطفى الرافعى طبعة أولى سنة ١٩٧٢ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت .

فالإسلام هو الدين الذى يقدم المنهج الصحيح للحياة ، فلا هو دين أخروى بحت يهمل الحياة الدنيا ولا هو الدين الذى يفرض السلبية الكاملة على الإنسان و يفرض عليه الخضوع للأمر الواقع وعدم التفكير فى تغييره .

إن هذا الدين الذى يعطى التوازن الصحيح بين الدنيا والآخرة و بين العبودية الكاملة لله والإيجابية السوية للإنسان هو الدين الصحيح الذى تصلح به الحياة فى الأرض وتستقيم به خطى البشر فى الحياة الدنيا(١) .

ومن هنا فلا بد من تحكيم هذا الدين فى كل أمر من أمورنا ولا بد من اقصاء العلمانية أو غيرها - من كل ما لم يأمر به الله - من حياتنا وتطبيق شريعة الله الخالدة كى تستقيم مجتمعاتنا ويرضى الله عنا .

ولا يحق - بعد هذا كله - لأحد أن ينادى بتطبيق مناهج البشر ولا أن يرفع راية العلمانية .

فإن طلب حاكم تطبيق العلمانية فى مجتمع إسلامى ، فذلك لعدم أهليته للحكم وللهرب من المسؤولية التى يلقيها الإسلام على الحاكم كحاكم فى طلب الإستقامة فى السلوك وأداء أمانة الحكم والعدل والشورى المتبادلة والرعاية وليس التسلط والقهر والجبروت .

وإن طلب ذلك مفكر فالقصور فى معرفة الإسلام وخداع نفسه وغيره يعرض قضايا يدرك أطرافها فقط دون جوهرها وغايتها .

---

(١) انظر : خصائص التصور الإسلامى ، فصل التوازن ؛ محمد قطب وص ٥٦ - ٥٧ ؛ مذاهب فكرية معاصرة للاستاذ محمد قطب ، طبعة أولى سنه ١٩٨٣ دار الشروق . بيروت .

وإن طلب سياسى تطبيق العلمانية فذاك لأنه يريد التلاعب بالفكر غير الناضج والتمويه فى حلبة المنافسة والسياسية ، فإن الغاية ـ عندالقوم ـ تبرر الوسيلة .

وإن فعل ذلك فتى أو فتاة فذاك للتحلل من التزام الإيمان فى التوجيه والسلوك ، والانطلاق فى شهوة البطن والفرج والملبس(١) والسير تحت راية المادية والتمتع بشهواتها والاندفاع فيها ، فهم (يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم)(٢) .

---

(١) ص ٥٤ العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق ، د . محمد البهى : بتصرف .

(٢) سورة محمد من الآية : ١٢ .

إنهيار أساس العلمانية

لقد قامت الفلسفة العلمانية على أكتاف المذهب المادى المعارض لمفاهيم الدين وعلى عكسها تماما .

ومن المعروف أن المذهب المادي يرى أن الوجود قديم وأن المادة هي مصدر كل كائن ، وأن لها خصائص ونواميس عامة لا أثر للتدبير فيها .

ولقد قال دعاة المادية : إن ما أتت به الأديان من وجود مدبر حكيم وراء هذا العالم هو من الزخارف الكلامية التى ولدها الخيال وتمسك بها الجهال ، وأن الذين يقومون عليها رجال لهم مصالح ذاتية وتقاليد وراثية .

وقد أعلنت الفلسفة المادية اعتمادا على بعض النظريات العالمية أن المادة لاتنقسم إلى مالانهاية بل تقف عندالجوهرالفرد ، غيرأن العلم لم يلبث أن تخلى عن هذه النظرية بعد أن اكتشف أن الذرة قابلة للتجزئة ، وبذلك سقطت النظرية المادية نتيجة ذلك سقوطا شنيعا : لقد تمزق مفهوم المادة القديم وأصبحت المادة طاقة .

لقد أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة وأن ما أسموه الجوهر الفرد ليس إلا « فرض » من الفروض التى قدمها العلم فى فترة من فترات البحث .

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى :

إن أخطر النتائج العلمية التى نشأت عن التقدم فى البحوث الفيزيقية هو إفساح المجال للحرية حتى فى عالم الفيزيقا وهو أول درجة من درجات

المادة ، ذلك أن الطاقة التى تتبدد من الذرة عند انغلاقها فتذهب يمينا أو شمالا لا يمكن تحديد مسارها .

وقد كانت معارضة المادية القديمة للأديان من هذا الوجه ، نعنى من جهة القول بالحتمية المستمدة من طبيعة الأشياء ، حتى ذهب غلاة المادية المادية إلى القول بأن المادة هى كل شىء وهى أصل العقل والشعور ، وليس العقل إلا إفرازات المخ ، كما تفرز الكبد الصفراء .

وقد قال العلامة « هالدين » فى كتابه « المادية » :

لقد ماتت النظرية المادية بالنظرية القائلة بأن الذرات مركبة من الكهرباء وبروتونات موجبة والكترونات سالبة ، وطغت عليها نظرية « الكوانتم » التى تقول :

إن الكهرباية تجىء شحناتها من المجهول وتذهب إلى المجهول .

إن نظرية « الكوانتم » قد قضت قضاء مبرما على النظريات الميكانيكية .

ومن هنا لم يعد المذهب المادى هو كل شىء فى هذه الحياة ، إن الحقيقة التى ظل الانسان يبحث عنها دهورا مديدة : روحانية فى جوهرها والروح لا يدركها العقل .

ولا ريب أن العقول بإنكار عالم الميتافيزيقا : عالم ما وراء الطبيعة لم يقل به العلم ، وإنما قال به الفلاسفة الماديون وحدهم ، ذلك لأنه المنطق الوحيد إلى الغاية التى قامت على نظريات ومذاهب مختلفة ، منها المادية الجدلية ، والمادية التاريخية (١) .

---

(١) ص ١٩ – ٢٠ الايدلوجيات والفلسفات المعاصرة فى ضوء الإسلام ، الأستاذ أنور الجندى ، دار الاعتصام .

وإذا كانت المادة قد انهارت فإن كل مشيد عليها سوف ينهار .
ستنهار العلمانية وتتساقط أعلامها وتتهاوى أنظمتها ويتبدد ظلامها أمام شمس الاسلام وهي تشرق من جديد يتقدمها موكب النور يخط على جبين حياتنا مبادىء الاسلام ويرسى - في مجتمعاتنا - نظامه الحنيف وتشريعاته السامية وينشر - بيننا - الحق والعدل والأمن والسلام ليعيش الناس أخوة متحابين يرددون قول الحق تبارك وتعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)(١) .

هذا وبالله التوفيق ؟

---

(١) سورة الصف آية ٩ .

المراجع

اسم الكتاب	المؤلف
١ - القرآن الكريم	
٢ - بعض كتب الصحاح	
٣ - التبشير والاستعمار في البلاد العربية	د. مصطفى الخالدى وآخر المكتبة العصرية ، بيروت
٤ - الرسالة الخالدة	د. عبد الرحمن عزام ، دار الشروق
٥ - الإسلام والحضارة الغربية	د. محمد محمد حسين ، المكتب الاسلامى
٦ - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر	د. محمد محمد حسين
٧ - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا	د. يوسف القرضاوى ، مكتبة وهبة
٨ - المجتمع الاسلامى	د. أحمد شلبى ، النهضة المصرية
٩ - المسلمون فى معركة البقاء	د. عبد الحليم عويس ، دار الاعتصام
١٠ - الغارة على العالم الاسلامى	أ. ل. شاتليه ، ترجمة محب الدين الخطيب ، مكتبة أسامة بن زيد بيروت
١١ - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر	
١٢ - الغرب والشرق الأوسط	تعريب نبيل صبحى
١٣ - التربية وبناء الأجيال فى ضوء الاسلام	أنور الجندى ، دار الكتاب اللبنانى
١٤ - المادية التاريخية	تأليف ف. كيلى . م . كوفالزون ترجمة أحمد داود ، دار الجماهير ، دمشق
١٥ - المذاهب الاقتصادية الكبرى	تأليف جورج سول ترجمة راشد البداوى
١٦ - الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى	د. محمد البهى
١٧ - العلمانية والاسلام بين الفكرة والتطبيق	د. محمد البهى ، طبعة مجمع البحوث
١٨ - الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية	الندوى

الكتاب	المؤلف
١٩ ـ الرجل الصنم	تأليف ضابط تركى سابق ، ترجمة عبدالله عبدالرحمن مؤسسة الرسالة طبعة أولى سنة ١٩٧٧ م
٢٠ ـ الإسلام وأصول الحكم	الشيخ على عبد الرازق
٢١ ـ الاسلام والخلافة فى العصر الحديث	د . ضياء الدين الريس
٢٢ ـ الدين والدولة فى الاسلام	د . مصطفى السباعى
٢٣ ـ الاسلام على مفترق الطرق	د . محمد أسد
٢٤ ـ القانون الاسلامى وطرق تنفيذه	المودودى
٢٥ ـ الاسلام قوة الغد العالمية	تأليف بول شمتز ترجمة د . شامة
٢٦ ـ العدالة الاجتماعية فى الاسلا	سيد قطب
٢٧ ـ العلمانية ونهضتنا الحديثة	د . محمد عمارة ، دار الشروق سنة ١٩٨٦
٢٨ ـ الاسلام والنظام العالمى الجديد	تأليف مولاى محمد على ، ترجمة السحار
٢٩ ـ إطار إسلامى للفكر المعاصر	أنور الجندى
٣٠ ـ حاضر العالم الإسلامى	للسير تيودور ملستون
٣١ ـ حصوننا مهددة من داخلنا	د. محمد محمد حسين
٣٢ ـ فجر الإسلام	أحمد أمين
٣٣ ـ ثقافة المسلم فى وجه التيارات المعاصرة	د. عبد الحليم عويس: النادى الأدبى الرياض سنة ٧٩
٣٤ ـ دعوة إلى الاسلام	محمد الفضالى
٣٥ ـ دولة القرآن	طه عبد الباقى سرور
٣٦ ـ سيرة ابن هشام	لابن هشام
٣٧ ـ سقوط العلمانية	أنور الجندى
٣٨ ـ لمحات فى الثقافة الإسلامية	عمر عودة الخطيب
٣٩ ـ من هنا نعلم	الشيخ محمد الغزالى دار الكتب الحديثة
٤٠ ـ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين	مصطفى صبرى
٤١ ـ مؤامرة فصل الدين عن الدولة	محمد كاظم حبيب

٤٢ – مستقبل الثقافة فى مصر — د. طه حسين
٤٣ – منهاج الحكم فى الاسلام — محمد أسد . ترجمة منصور محمد ماضى
٤٤ – مذاهب فكرية معاصرة — محمد قطب . دار الشروق
٤٥ – منهج التربية الاسلامية — محمد قطب . دار الشروق
٤٦ – طه حسين حياته وفكره فى ميزان الاسلام — أنور الجندى
٤٧ – يوم الاسلام — أحمد أمين
٤٨ – الإسلام ومشكلات العصر — د. مصطفى الرافعى
٤٩ – خصائص التصور الاسلامى — د. محمد قطب
٥٠ – الأيدلوجيات والفلسفات المعاصرة فى ضوء الاسلام — أنور الجندى

فهرست الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٧٢٥ / ١٩٨٨